الفصل الثالث

شعر ابن القيسراني في الميزان

أ ـ الدور الوظيفي

١ ـ جهاد إسلامي .

٢ ـ استعادة الأرض والمقدسات .

٣ ـ القوّة والوحدة .

٤ ـ الإعلام الهادف .

٥ ـ أضواء على البطل .

٦ ـ موقف من العدو .

ب ـ الأداء الفني

١ ـ النزعة الاتباعية .

٢ ـ مقاييس العصر الأدبية .

٣ ـ طوابع شخصية .

obeikandl.com

obeikandl.com

أولاً : الدور الوظيفي :

حين نحاول الحكم على شعر ابن القيسراني ، نجد أننا مضطرون لأن نتناول هذا الشعر في إطارين رئيسيين : أولهما مدى نجاح هذا الشعر من الناحية الوظيفية ، أي قدرته على تصوير الأحداث وأصدائها في النفوس من ناحية والتوجيه إلى أهداف معيّنة من ناحية أخرى ، وثانيهما المستوى الفني لهذا الشعر .

والحق أن كلا الاطارين مرتبط أحدهما بالآخر متلاحم معه . ذلك لأن الفكرة ، تحتاج أبداً إلى التعبير الصادق المناسب ، لكي تكون واضحة قوية مؤثرة ، مثلما أن التعبير اللفظي يحتاج إلى الفكر الصالح مادة له ، لكي يكون ذا قيمة وأثر .

وقد يخطر في الذهن أول ما يخطر ، مدى مواكبة شعر ابن القيسراني لأحداث عصره . وهنا نتبين ، كما هو واضح في الفصل السابق ، أن الشاعر صمت صمتاً غريباً عن الأحداث المتصلة بالحروب الصليبية خلال فترة طويلة من عمره ، ربما امتدت إلى بلوغه الخمسين تقريباً . وإذا ما حكمنا على الأمور من مجموع شعره المتوافر بين أيدينا ، وأغفلنا احتمال ضياع قدر آخر من شعره ، قد يكشف لنا عما لا يكشفه الشعر الذي بين أيدينا ، فإن أقرب تعليل لهذا الصمت ، أن الشاعر لم يكن قبل التحاقه بالأسرة الزنكيّة ، قد

وجد « البطل » الذي وجده فيما بعد في « عماد الدين » ثم في « نور الدين » . والأحداث التاريخية التي استقريناها فيما سبق من هذا البحث ، تظهر أن الشخصيات الدمشقية التي عرفها ابن القيسراني خلال اقامته في « دمشق » لم يبلغ أيّ منها منزلة عماد الدين أو نور الدين ، فضلاً عن أن صلة الشاعر بحكام دمشق ، لم تكن كما يبدو ، على مستوى صلته بالزنكيين ، وبخاصة نور الدين ، الذي لازمه الشاعر ، حتى قبيل وفاته (وفاة الشاعر) بقليل . وغنيّ عن البيان كذلك ، أن صلة الزنكيين النشطة الفاعلة بأحداث الحروب الصليبية ، كانت أعظم بكثير من صلة حكام دمشق بها .

وإذن ، بوسعنا أن نقول بكثير من الاطمئنان ، انه منذ أن اتصل ابن القيسراني بعماد الدين زنكي ، بدأ شعره يواكب أحداث الحروب الصليبية ، متأثراً بها ، مسجلاً لها ، إلى الحد الذي يمكن معه استقراء هذه الحوادث أو قسم كبير منها من شعر الشاعر بصورة موازية لاستقرائها من نص المؤرخ مع الأخذ بعين الاعتبار ، الفرق في طبيعة التسجيل ، ما بين رصد المؤرخ للأحداث ، وانفعال الشاعر بها .

بيد أنّ هناك أمراً لا بد من التنبيه إليه عند الحديث عن مواكبة شعر ابن القيسراني لوقائع الحروب الصليبية : ذلك أن هذا الشعر ، كان ينقصه في الغالب الأعم ، التحديد الدقيق للواقعة ، وابراز معالمها الخاصة بها .

ولا ريب أن ذكر مجموعة من الأعلام المرتبطة بالأشخاص أو الأماكن في عدد من قصائد ابن القيسراني ، يضفي سمة من سمات التحديد للواقعة ، ولكن التفاصيل الأخرى التي تضفي سمة الواقعية على الأحداث الحربية ، غالباً ما كانت غائبة في هذا الشعر . ومن هذه التفاصيل الغائبة ، تسلسل الحوادث الحقيقي ، وطبيعة المكان الذي دارت فيه المعركة ، ونوعيّة القتال ما بين حصار والتحام ومطاردة ، وأنواع الأسلحة التي استخدمت تبعاً لنوعية القتال ، وغير ذلك من الأمور التفصيلية .

وحين نتساءل عن غياب هذه اللمسات عن معظم قصائد ابن القيسراني الحربية ، نصل إلى الاحتمالات التالية :

أ — إن الشاعر لم يكن يشهد هذه الوقائع بنفسه ، إذ لا يوجد نص تاريخي أو أدبي يشير إلى أن ابن القيسراني شهد أياً من الوقائع التي كان يخوضها ممدوحوه ، وهذا يعني أن مادة القصيدة الحربية عند ابن القيسراني ، كانت تستمد من السماع والتصوّر ، لا من المشاهدة الحقيقية للمعارك .

ب — إن ابن القيسراني اتكأ كثيراً في تصويره لمعارك ممدوحيه على التراث الشعري الحماسي الموروث ، ولا سيما على شعر أبي تمام وأبي الطيب المتنبي ، كما سنبيّن في الصفحات اللاحقة بشيء من تفصيل . ولعلّه كان في ذلك يساير نزعة سائدة في زمنه ، تتمثل في التطلّع إلى التراث الأدبي الموروث باعتباره الغاية التي ينبغي أن يتوجه إليها الأدباء ، يستقون منها ، ويحاولون تقليدها ، دون أن يطمحوا إلى الوصول إليها ، أو الخروج عن خطوطها وقواعدها ، ومثل هذه التبعية ، لا بد أن يترتب عليها صور أدبية مقلدة منقولة ، تنقصها الأصالة والواقعية معاً .

ج — إن الشاعر كان حين يكتب شعره في الوقائع الحربية ، ينظر إليه باعتباره شعر مديح أولاً ، بما تقتضيه هذه النظرة من تركيز على فضائل الممدوح ، وجعل المعركة التي خاضها ، بما تتطلبه من شجاعة وقدرة قتالية وروح جهادية ، المحور الذي يدور حوله المدح . ولا يخفى ما ينبني على ذلك من تسليط الأضواء على شخص الممدوح بدلاً من اعطاء وصف شامل متكامل للواقعة نفسها .

د — إن شخصية ابن القيسراني ، لم تكن مهيأة فطرياً للعنف ومناظر الدم ، ويمكن استخلاص ذلك من تغيّب الشاعر عن معارك ممدوحيه من ناحية ، ومن ذلك العدد الكبير جداً من قصائد اللهو والعبث التي يزخر بها ديوانه ، والقطع الشعرية المنسوبة إليه في المصادر المختلفة من ناحية أخرى .

ولا ريب أن استمرار النزوع إلى العبث عند الشاعر بعد أن تجاوز الستين ، كما تدل على ذلك « ثغرياته » التي نظمها في حسان الفرنجة في أنطاكية وما حولها ، لدليل على أن اتجاه الشاعر إلى اللهو ، كان شيئاً أصيلاً فيه ، ولم يكن يمثل نزوة شباب عابرة .

هـ — من الممكن أن تكون اللفظية المفرطة التي طبعت أدب هذا العصر بطابعها قد صرفت الشاعر إلى الزخرف اللفظي ، فعنّى نفسه في ترصيع أبياته بهذا الزخرف ، واستنفد جهده في تلمس الصنعة بدلاً من أن يصرفه إلى النفاذ العميق في مادته ، ومن ثمّ طبعها بطابع الاصالة والعمق ...

* * *

هذا ويبتدىء تسجيل ابن القيسراني لأحداث العصر المتصلة بالوجود الصليبي في أرض الشام ، بصورة شبه منتظمة ، منذ أن التحق بعماد الدين زنكي كما سبق أن ذكرنا ، ويصبح هذا التتبع للأحداث أشد انتظاماً بعد أن التحق الشاعر بنور الدين محمود .

وإذا كانت قصائد ابن القيسراني في عماد الدين وولده نور الدين ، تصوّر مرقف الشاعر بوصفه أحد المسلمين من الصراع العسكري الذي كان دائراً بين المسلمين والصليبيين في المنطقة ، فإن « ثغرياته » ، تمثل موقفاً ذاتياً له من بعض مظاهر هذا الوجود ، وهو موقف فيه الكثير من الغرابة والطرافة كما سبق أن بيّنا في صفحات ماضية .

على أننا حين نستعرض شعر شاعر في أحداث أو أوضاع معينة، ينبغي أن نتذكر أننا ننحرف بالشعر عن مهمته الأصيلة ، إذا كنا نرى فيه مجرّد مصدر للمعلومات عن تلك الأحداث والأوضاع . ذلك أننا ننتظر من الشاعر فوق ما قد يتضمنه شعره من معلومات عن حدث أو وضع ، أن يصوّر لنا بفنه الشعري ، الأصداء التي يتركها ذلك الحدث أو الوضع في نفسه

ونفوس أبناء الجماعة التي ينتمي إليها ، لكي يكون الشعر معبراً عن أحاسيس الشاعر وجماعته ، على مستوى فني مؤثر . والشعر بذلك ، تتمثّل فيه « مواقف » ، ويتعدى مهمة السرد والنقل . ولذا فإننا نتساءل حين نتلمس الدور « الوظيفي » الذي اضطلع به شعر ابن القيسراني ، عن مدى نجاح الشاعر في تصوير موقف الجماعة الإسلامية التي ينتمي إليها من الأحداث والأوضاع التي شهدتها المنطقة في تلك الفترة ، وكذلك قدرته على توجيه هذه الجماعة نحو أهداف معينة .

obeikandl.com

جهاد إسلامي :

لا ريب أن ابن القيسراني ، قد قدم لنا النزاع الذي كان محتدماً ما بين أهل البلاد والغزاة الصليبيين ، في إطاره العام الشامل : باعتباره صراعاً بين المسلمين عامة وغزاة الديار الإسلامية ، وبذا فقد أخرج النزاع من النطاق الإقليمي الضيق . ومن نطاق التنازع المحدود على المُلْك والسلطان ... وحين فعل الشاعر ذلك ، لم يكن أميناً للتاريخ فحسب ، بل حاول كذلك أن يحقق أهدافاً ذات صبغة عملية ، حين حاول أن يجمع بشعره على درب الجهاد أكبر مجموعة من الناس الذين يمكن أن يقاوموا الغزو . فاستقطاب الطاقة الإسلامية الشاملة للوقوف في وجه الصليبيين ، كان أجدى من الناحية العملية من أي استقطاب عرقي أو اقليمي .

من أجل ذلك ، يستبين القارىء لشعر ابن القيسراني في القتال ضد الصليبيين منذ البداية الطابع الديني الذي أضفاه على المعركة . ففي أول قصيدة وصلتنا من شعر ابن القيسراني الجهادي ، وهي القصيدة التي نظمها في تاج الملوك بوري صاحب دمشق سنة ٥٢٣ هـ[1] ، أثر انتصاره على الصليبيين ، ينعت الشاعر الأعداء بـ « المشركين » :

حتى إذا ما أحاط المشركون بنا كالليل يلتهم الدنيا له ظلم

---

١ – انظر الروضتين ج١ ق١ ص ١٤١ .

ويقدم لنا قائد المعسكر الإسلامي محوطاً بعناية الله :

يحوطك الله صوناً عن عيونهم والله يعلم من بالله يعتصم

وخيل المسلمين هي « خيل الله » ، وهو تعبير استعمله الرسول عليه السلام من قبل[1] . والمطلب هو الشهادة :

والنصر دان وخيل الله مقبلة ترجو الشهادة في الهيجا وتغتنم

والمنهزمون ترتبط هزيمتهم بشعائر دينهم حين يستسلمون لأيدي المسلمين :

فغادروا أكثر القربان وانجفلوا وخلّفوا أكبر الصلبان وانهزموا
مستسلمين لأيدي المسلمين وقد أغرى القنا بتمادي خطفهم نهم[2]

وحين يمجد ابن القيسراني انتصار عماد الدين زنكي على الصليبيين ، واستيلاءه على حصن بارين عام ٥٣٤ هـ ، يقدمه ملكاً مؤيداً بنصر الله يقارع ملوك الشرك :

وأين ينجو ملوك الشرك من ملك مَنْ خيله النصر لابل جنده القدر[3]

ومن ثمّ فالنصر لا يمثل انتصار شخص أو فئة ، بل هو نصر للدين على أعدائه :

وأصبح الدين لا عيناً ولا أثراً يخاف ، والكفر لا عين ولا أثر

ولكي يحقق استثارات وجدانية معينة في نفوس المسلمين ، يربط ما بين اعادة الساحل الشامي المحتل إلى حوزة الإسلام ، وبين شخصية إسلامية عظيمة ، ارتبط اسمها بفتوحات المسلمين الأولى : شخصية عمر ابن الخطاب :

حتى تعود ثغور الشام ضاحكة كأنما حلّ في أكنافها عمر

---

١ – انظر سنن أبي داود ط القاهرة ١٩٥٢ ج٢ ص ٢٤ .
٢ – انظر أبيات القصيدة في الروضتين ج١ ق١ ص ١٤١ – ١٤٢ .
٣ – انظر هذه القصيدة في الروضتين ج١ ق١ ص ٨٨ – ٨٩ .

وحين يسترد عماد الدين زنكي مدينة الرّها عام ٥٣٩ هـ يمجده الشاعر باعتباره المجاهد المقاتل في سبيل الله :

وذاد قسيم الدولة ابن قسيمها عن الله ما لا يستطاع ذياده

والتهنئة التي يزفها الشاعر بهذا النصر ، هي لكل المسلمين ، لا لأهل الشام وحدهم :

ليهن بني الإيمان أمن ترفعت رواسيه عزاً واطمأن مهاده

والتعابير المرتبطة بالعقيدة الإسلامية ، والتاريخ الإسلامي استعملها الشاعر لاحداث ايحاءات معينة :

ولا منبر إلا ترنّح عوده ولا مصحف إلا أنار مداده
ومن كان أملاك السموات جنده فأية أرض لم ترضها جياده[1]

ومن مظاهر استثارة الشعور الديني التي تتكرر في شعر ابن القيسراني الربط المتكرر ما بين معارك عصره ومعارك الإسلام . فمن ذلك قول الشاعر من قصيدة هنأ بها القاضي كمال الدين الشهرزوري بفتح الرّها عام ٥٣٩ هـ :

لله أية وقفة بدريّة نصرت صحائبها بأيمن صاحب

وأمدكم جيش الملائك نصرة بكتائب محفوفة بكتائب
جنبوا الدبور وقُدْتُمُ ريح الصبا جند النبوّة هل لها من غالب![2]

وحين يحرز نور الدين نصراً موزراً سنة ٥٤٤ هـ ، ويستولي على حصن « إنّب » ، يربط الشاعر هذا الانتصار بمعان دينية على النحو التالي :

غضبت للدين حتى لم يفتك رضا وكان دين الهدى مرضاته الغضب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسباً من الملوك فنور الدين محتسب

١ — انظر أبيات هذه القصيدة في الروضتين ج١ ق١ ص ٩٧ — ٩٨ .
٢ — كتاب « الروضتين » ج١ ق١ ص ٩٨ — ٩٩ .

فاسعد بما نلته من كل صالحة يأوي إلى جنة المأوى لها حسب
إلا تكن أحد الابدال في فلك التقوى فلا نتمارى أنك القطب[1]

وحين يؤسر « جوسلين » الصليبي ، وتمتلك مجموعة من قلاعه يربط ابن القيسراني بين ممدوحه وبين أماكن ومعان لها صفة قداسة عند المسلمين حين يقول :

مليك سمت شمّ المنابر باسمه كما زهيت تيها به الأنجُمُ الزهر
فيا كعبة ما زال في عرصاتها مواسم حج لا يروّعها النّفْر
رددتَ الجهاد الصعب سهلا سبيله ويا طالما أمسى ومسلكه وعر[2]

---

١ – المصدر نفسه والأبيات موزعة في الصفحات ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥

٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٨٧ – ١٨٨ .

استعادة الأرض والمقدسات :

وإذا كنا في صدد البحث عن مواقف للشاعر ، وبالتالي للجماعة الإسلامية التي ينتمي إليها ، فينبغي ألا ننسى موقف هذه الجماعة من الأرض المحتلة ، وعلى رأسها القدس . وما أشبه الليلة بالبارحة ! وهنا يمتزج الحنين إلى الأرض إلى القاعدة الترابية للحياة الإسلامية ، مع العقيدة الإسلامية نفسها امتزاجاً عجيباً ، حتى ليخيّل لقارىء ابن القيسراني أنه ليس ثمة فارق ما بين حمية دينية تولّد ارادة القتال ، وحمية وطنية تبعث على استرداد الوطن المحتل . ولعلّ مكانة القدس في العقيدة الإسلامية ، وارتباطها بالحياة الإسلامية الأولى ، قد جعلت من القدس والأرض المباركة من حولها ، أكثر من مجرّد تراب يعيش الإنسان المسلم فوقه ، بل قاعدة أرضية مقدسة من قواعد الإسلام ، لا تقوم مقامها أرض في الدنيا بأسرها !

من هنا هذه الدعوة المتكررة لاسترداد القدس والأرض المحتلة في كل قصيدة يهنىء فيها الشاعر بانتصار . فها هو يقول لعماد الدين عام ٥٣٤ هـ بعد أن أحرز نصراً على العدو :

لا فارقت ظل محيي العـدل لامعة ... كالصبح تطوي من الأعداء ما نشروا
ولا انثنى النصر عـن انصار دولته ... بحيث كان وان كانوا به نصروا

حتى تعود ثغور الشام ضاحكة كأنما حلّ في أكنافها عمر[1]

وانتصار نور الدين الكبير عام ٥٤٤ هـ في « إنّب » يتخذ حافزاً قوياً لاستعادة القدس والأقصى وأرض الساحل ، وهذه العملية في رأي الشاعر هي عملية تطهير للأرض :

لم يبق منهم سوى بيض بلا رمق كما التوى بعد رأس الحية الذنب
فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجب يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
وائذن لموجك في تطهير ساحله فإنما أنت بحر لجّهُ لجب
يا من أعاد ثغور الشام ضاحكة من الظبا عن ثغور زانها الشنب
ما زلت تلحق عاصيها بطائعها حتى أقمت وأنطاكيةٌ حلب[2]

وافتتاح حصون « جوسلين » سنة ٥٤٥ هـ ، بعثٌ لأمل قوي في استرداد المقدسات والساحل الشامي المحتل . وهنا يمزج ابن القيسراني ما بين الارتباط بالمقدسات والحنين إلى الوطن الضائع ربطاً حاذقاً مؤثراً ، وذلك حين يقول لنور الدين :

كأني بهذا العزم ، لا فلّ حدّه وأقصاه بالأقصى وقد قُضيَ الأمر
وقد أصبح البيت المقدس طاهراً وليس سوى جاري الدماء له طهر
وقد أدت البيض الحداد فروضها فلا عهدة في عنق سيف ولا نذر
وصلّت بمعراج النبي صوارم مساجدها شفع وساجدها وتر
وإن يتيممْ ساحل البحر مالكاً فلا عجب أن يملك الساحلَ البحر[3]

---

١ – انظر « الروضتين » ج١ ق١ ص ٨٩ .
٢ – انظر الروضتين ج١ ق١ ص ١٥٤ .
٣ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٨٧ .

القوّة والوحدة :

وموقف آخر للشاعر ، نستخلصه من شعره ، إزاء الاحتلال الصليبي لأرض الشام ، ذلك هو الإيمان بأن استعادة الحق لا بد لها من وسيلتين أساسيتين: القوة ووحدة القوى الإسلامية ، ولا ريب في أن الثانية ترفد الأولى ، بل هي واحدة من أهم مقوّماتها ، إذ لا قوّة بلا وحدة . ولا يترك الشاعر شكاً فيما نظم من شعر ، في أنه داعية قوة ووحدة في آن معاً .

ويُعَبّر ابن القيسراني عن إيمانه بقوة السلاح سبيلاً لاستخلاص الأرض من الغزاة ، حين هنأ بقصيدة له الوزير جمال الدين أبا جعفر محمد بن علي الأصبهاني بفتح الرّها الثاني على يد نور الدين عام ٥٤١ هـ ، وذلك حين يقول :

إلى كم يغبّ ملوك الضلال ... سيف بأعناقها كافل
فلا تحفلنّ بصول الذئاب ... وقد زأر الأسد الباسل
كذا ما انثنت قط صمّ الرماح ... أو يتثنّى القنا الذابل
هو السيف ، إلا تكن حاملا ... لبزته بزّك الحامل
وهل يمنع الدين إلا فتى ... يصول انتقاماً فيستأصل[1]

وبُعَيْدَ قدوم نور الدين من أرض الجزيرة الفراتية عام ٥٤٤ هـ ، يتخذ ابن القيسراني من تلك المناسبة فرصة لامتداح نور الدين ، فيؤكد إيمانه

١ – الخريدة ج١ ص ١٠٩ .

بالقوة سبيلاً إلى النصر وحسم عناد الأعداء :

حكمتْ لسيفك بالممالك عنوة حكماً لعمري ما عليه غبار
يا أيها الملك المطيل نجاده برّ يدينُ بهديه الأبرارُ
يا ابن السيوف وهل فخرْتَ بنسبة إلا سما بك قائم وغرار

* * *

فاحسم عناد ذوي العناد بمحفل كالليل فيه من الصفيح نهار
جند على جرد أمام صدورها صدر عليه من اليقين صدار[1]

والدعوة إلى القوة والإيمان بها سبيلاً إلى النصر ، جعلا الشاعر يبدأ قصائده ، على طريقة أبي تمام والمتنبي ، بمطالع تمجّد القوة وتقدسها . فها هو يقول بعد استعادة الرّها سنة ٥٣٩ هـ :

هو السيف ، لا يغنيك إلا جلاده وهل طوقَ الأفلاك إلا نجاده
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا سناها وإن فات العيون اتقاده[2]

ويربط ابن القيْسَراني ما بين تولي أمر الممالك من ناحية ، وبين القوة المسلحة من ناحية أخرى ، حين يقول ، وكأنه يتأثر ببيت أبي الطيب المتنبي[3] :

ولمْ لا يلي أسنى الممالك مالك زعيم بجيش من طلائعه النصر

وحتى دمشق ، المدينة المسلمة التي كانت تخضع أحياناً لحكم حكام منحرفين عن الجادّة ، تحتاج إلى استعمال القوة ، من أجل أن تنتظم في الصف الإسلامي . وهكذا يقول ابن القيسراني لنور الدين وهو يتحدث عن المدينة :

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٧٥ – ١٧٦ .
٢ – المصدر نفسه ص ٩٦ .
٣ – انظر ديوان المتنبي ، شرح اليازجي ، ط بيروت ١٩٦٤ ، ج٢ ص ٣٤ . والبيت المقصود هو :
أعلى الممالك ما يبنى على الأسل والطعن عند محبيهن كالقبل

خطبتَ فلم يحجبْك عنها وليها وخَطْبُ العلا بالسيف ما دونه ستر
على أنها لو لم تُجبْك إنابةً لأرهقها من بأسك الخوف والذعر[1]

وإذا كانت القوة هي سبيل النصر كما يرى الشاعر ، فالوحدة سبب من أسباب القوة كما ذكرنا، ومن ثم فهي سبيل النصر كذلك. من أجل ذلك، دعا ابن القيسراني في شعره إلى ضم الصفوف . فحين تقرر الصلح ما بين نور الدين وحكام دمشق سنة ٥٤٥هـ، رأى ابن القيسراني في التقاء دمشق وحلب، سبيلاً إلى استنقاذ القدس ، وجمعاً لقوى الإسلام على الهدى والصلاح . فها هو يقول في قصيدة نظمها بهذه المناسبة يثني فيها على نور الدين :

لك الله إن حاربت، فالنصر والفتح وإن شئت صلحاً، عدّ من حزبك الصلح
وهل أنت إلا السيف في كل حالة فطوراً له حدّ وطوراً له صفح

* * *

وقد علم الأعداء مذ بتّ جانحاً إلى السلم ما تنوي بذاك وما تنحو
إذا ما دمشق ملّكتْكَ عنانها تيقن من في إيليا أنه الذبح
متى التفّ نقع الجحفلين على الهدى فلا مَهْمَهٌ يحوي الضلال ولا سفح
إذا سار نور الدين في الجيش غازياً فقولا لليل الأفك قد طلع الصبح
تركت قلوب الشرك تشكو جراحها فلا زالت الشكوى ولا اندمل الجرح
صبرت، فكان الصبر خير مغبة فسيق إليك الملك يسعى به النُّجح[2]

وفرحة الشاعر بارتباط دمشق بحلب ، يعبر عنها في قصيدة أخرى نظمها سنة ٥٤٥ هـ كذلك ، استعرض فيها مجموعة من انتصارات نور الدين ، وفيها يقف وقفة طويلة على دمشق وهو يشير إلى ارتباطها الجديد بنور الدين ، فيضفي على المدينة التي كان أربابها قد أخرجوه منها خائفاً يترقب ، مجموعة من الصفات الجميلة ، برغم كونه منفياً عنها . فها هو يقول مخاطباً نور الدين:

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٨٦ .
٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٨٠ .

ليهن دمشقاً أن كرسيَّ ملكها ... حبي منك صدراً ضاق عن همة الصدر
وأنك نور الدين مذ زرت أرضَها ... سمت بك حتى انحط عن نسرها النسر
خطبْت، فلم يحجبك عنها وليها ... وخطب العلا بالسيف ما دونه ستر
جلاها لك الاقبال حورية السنا ... عليها من الفردوس أردية خضر
قلوبٌ ، أكنَّت من هواك محبة ... نمت فانتمت جهراً وسرّ الهوى جهر
فسقت إليها الأمن والعدل نحلَةً ... فأمست ولا أسر تخاف ولا إصْر
فإن صافحت يمناك من بعد هجرها ... فأحلى التلاقي ما تقدمه هجر
وهل هي إلا كالحصان تمنّعتْ ... دلالاً، وان عزّ الحيا وغلا المهر
ولكن إذا ما قستها بصداقها ... فليس له قدر وليس لها قدر
هي الثغر أمسى بالكراديس عابسا ... وأصبح عن باب الفراديس يفترّ
على أنها لو لم تجبك إنابة ... لأرهقها من بأسك الخوف والذعر[1]

ومرّة أخرى ، تتصافى المدينتان بعد خصام سنة ٥٤٦ هـ ، فيتوجه مجير الدين حاكم دمشق إلى حلب ، مصالحاً لنور الدين ، باذلاً له الطاعة وحسن النيابة عنه في دمشق ، فيهلّل ابن القيسراني لاتفاق الحاكمين ، ولا يقسو على مجير الدين بشيء ، بل على النقيض من ذلك ، نرى في اشارته إليه شيئاً من تقدير ، كما أن الشاعر يرى فيما حدث إعزازاً لدمشق لا اذلالاً ، يقول ابن القيسراني في خطابه لنور الدين :

وفت لك الدنيا بميعادها ... باذلة أفلاذ أكبادها
وأوفدت غرّ سلاطينها ... عليك في همة انجادها
تبغي سناءً أقصدت قصده ... طائعة طاعة أجنادها
خاضعة تعتد أعمارها ... يوم التلاقي يوم ميلادها
شامت دمشق بك برق العلا ... فأرسلت أصدق روّادها
رأتك نور الدين نار الهدى ... قد أشرق الأفق بإيقادها

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٨٦ .

فيممتْ منك حيا مزنة بيض الأيادي ورد ورّادها
فاسأل مجير الدين عن خُبْرِهِ أوردها محمود إيرادها
تبوأت من عزّها قبةً سمر القنا أطناب أوتادها[1]

ولعلّ من مظاهر ارتياح ابن القيسراني إلى جمع المسلمين على طريق واحد – طريق الجماعة – استحسانه لما فعله نور الدين في حلب ، عام ٥٤٣ هـ حين أمر بابطال « حيّ على خير العمل » في حلب ، في أواخر تأذين الغداة ، والتظاهر بسب الصحابة ، إذ أنكر ذلك انكاراً شديداً ، وساعده على ذلك جماعة من أهل السنة بحلب ، كما يقول ابن القلانسي[2] . ولا نكاد نشك في أن ابن القيسراني كان يشير إلى هذا الأمر حين قال في القصيدة السالفة موجهاً الخطاب إلى نور الدين :

هذا ، وكم من سنّة بدعة أعدمْتَها من بعد ايجادها[3]

ولا عجب أن يكون للقيسراني مثل هذا الموقف ، وهو نفسه من أهل السنة والجماعة ...

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٢٠٨ .
٢ – ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠١ .
٣ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٢٠٩ .

الإعلام الهادف :

وفي نطاق الدور الوظيفي الذي اضطلع به شعر ابن القيسراني في حروب المسلمين مع الصليبيين ، كان لا بد لهذا الشعر في ظل الظروف التي نظم فيها أن يقوم بمهمة إعلامية ، بالمفهوم الحديث للإعلام . ومعنى ذلك أن يتعدى الشعر نطاق النقل المجرّد للأحداث ، إلى تقديم هذه الأحداث في الصورة التي تحقق أغراض الحاكم المسلم ، وجمهور المسلمين عامة . وعلى ذلك تُمجَّد الانتصار ، بل ويضخّم ، ويقدّم في إطار عريض من التفاؤل والاستبشار وشعور الثقة العارمة بالنفس . ويدخل في عملية التمجيد والتضخيم هذه أن تعظّم المدن أو الحصون المستردة ، لكي تكون بهجة الناس بالانتصار متساوقة مع عظمة الموقع المسترد . ولعلّنا نجد هذه المواقف والصور مجتمعة في قصيدة ابن القيسراني التي هنأ بها عماد الدين زنكي بفتح مدينة الرّها عام ٥٣٩ هـ . فهذه أبيات منها تمثل الفرحة الكبرى بالظفر والانتشاء به :

هو السيف لا يغنيك إلا جلاده ... وهل طوّق الأملاك إلا نجاده
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا ... سناها وإن فات العيون اتقـاده

* * *

وفتح حديث في السماع حديثه ... شهيّ إلى يوم المعاد معـاده
أراح قلوباً طرن عن وكناتهـا ... عليها فوافى كلّ صدر فؤادُه

والأبيات التالية تقدم النصر في نطاق الإسلام الشامل :

سمت قبّة الإسلام فخراً بطوله ولم يكُ يسمو الدين لولا عماده

* * *

ليهن بني الإيمان أمن ترفعت رواسيه عزّاً واطمأن مهاده
فيا ظفراً عمّ البلاد صلاحه بمن كان قد عمّ البلاد فساده

* * *

ولا منبر إلاّ ترنّح عوده ولا مصحف إلا أنار مداده

* * *

وها هنا ثقة عارمة بالنفس ، وتطلّعٌ إلى مستقبل مشرق بالآمال :

إلى أين يا أسرى الضلالة بعدها لقد ذلّ غاويكم وعزّ رشاده
رويدكُمُ لا مانع من مظفّر يعاند أسباب القضاء عناده
مصيب سهام الرأي لو أن عزمه رمى سدّ ذي القرنين أصمى سداده
وقل للملوك الكفر تسلم بعدها ممالكها ان البلاد بلاده
كذا عن طريق الصبح فلينته الدجى فيا طالما غال الظلام امتداده
ومن كان أملاك السماوات جنده فأية أرض لم تطأها جياده
ولله عزم ماء سيحانَ وِرْدُهُ وروضة قسطنطينيّةْ مُستراده

والأبيات التالية تضخم النصر عن طريق تعظيم المدينة المفتوحة ــ الرّها :

لقد كان في فتح الرهاء دلالة على غير ما عند العلوج اعتقاده

* * *

مدينة إفك منذ خمسين حجة يفلّ حديد الهند عنها حداده
تفوت مدى الأبصار حتى لو انّها ترقّتْ إليه خان طرفاً سواده
وجامحة عزّ الملوك قيادها إلى أن ثناها من يعزّ قياده

* * *

فأضرمها نارين حرباً وخدعة فما راع إلا سورها وانهداده
فصدّت صدود البكر عند افتضاضها وهيهاتَ كان السيف حتم أسفاده[1]

---

١ ــ انظر القصيدة في الروضتين ج١ ق١ ص ٩٦ ــ ٩٧ .

وبالرغم من أن النصر في « إنّب » عام ٥٤٤ هـ كان ضخماً بالفعل، إلا أن ابن القيسراني يزيده ضخامة في قصيدته البائيّة التي مجّد فيها البطل المنتصر نور الدين :

أنبـاء ملحمة لـو أنهـا ذُكرتْ ... فيما مضى نسيت أنسابَها العرب
عمتْ فتوحك بالعدوى معاقلها ... كأن تسليم هـذا عنـد ذا جرب
لم يبق منهم سوى بيض بلا رمق ... كما التوى بعد رأس الحية الذنب
ما زلت تلحق عاصيها بطائعها ... حتى أقمت وأنطاكية حلب
حللت من عقلها أيدي معاقلها ... فاستحلفت وإلى ميثاقك الهرب
وأيقنتْ أنهـا تتلو مراكزها ... وكيف يثبت بيت ما له طنب[1]

هذه أصداء الانتصارات في شعر ابن القيسراني ، ولكن الحروب ليست كلها انتصارات ، ووسيلة الأعلام ، إن قدمه أو حديثه ، لا بدّ أن تعالج الهزيمة لتخفيف وقعها على النفوس ، مثلما أنها تمجّد الانتصار لتعظيم أثره . وعلى الرغم من أن حظ نورالدين من الانتصارات، كان أكبر بكثير من حظه من الهزائم ، إلا أنه لم ينج كلية منها . ومن الهزائم القليلة التي تعرّض لها ، هزيمة حدثت عام ٥٤٣ هـ ، وقد روى ابن القلانسي قصتها كما يلي[2] :

« وردت الأخبار في رجب من ناحية حلب ، بأن نور الدين صاحبها كان قد توّجه في عسكره إلى ناحية الأعمال الافرنجية ، وقصد أفامية ، وظفر بعدة من الحصون والمعاقل الإفرنجية ، وبعدة وافرة من الإفرنج ، وأنّ صاحب أنطاكية جمع الفرنج وقصده على حين غفلة منه ، فنال من عسكره واثقاله وكراعه ، ما أوجبته الأقدار النازلة ، وانهزم بنفسه وعسكره ».

على أن نور الدين لم يستسلم للهزيمة ، إذ لم يلبث أن التقى بالصليبيين

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٥٤ – ١٥٥ . انظر أمثلة أخرى في الروضتين ج١ ق١ ص ١٤٧، ١٨٧، ١٨٨ .

٢ – ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٢ – ٣٠٣ .

في السنة نفسها وانتصر عليهم[1] . وهذا يعني أن القصيدتين اللتين نظمهما ابن القيسراني وتعرّض فيهما للهزيمة الآنفة الذكر ، قد نظمتا بعد أن محا النصر اللاحق عار الهزيمة السابق . فلم يكن غريباً والحالة هذه ، أن يركّز الشاعر على النصر الذي تلا الهزيمة أكثر من تركيزه على الهزيمة نفسها . وهو إذ يلمح إلى الهزيمة في قصيدته الأولى دون تصريح بها ، فإنه ينوّه بقوة بادراك الثأر ، فالحرب كرّ وفرّ ، والحق لا بد له أن يظهر ويعلو في النهاية :

طالِبٌ بثـأر ضمنته الظبـا ... فكـل مـا يضمن مـردود
والكرّ والفـرّ سجـال الوغى ... فطـاردٌ طـوراً ومطرود
وإنمـا الافرنج مـن بغيها ... عادٌ ، وقـد عـاد لها هود
قد حصحص الحـق فما جاحدٌ ... في قلبه بأسك مجحـود[2]

وفي القصيدة الثانية التي نظمها بعد انتصار آخر كبير لنور الدين على الصليبيين ، يكاد الاعتذار عن الهزيمة السابقة يختفي في ثنايا الحديث عن الثأر الذي أُدرِك :

تفي بضمانها البيض الحـداد ... وتقضي دَيْنها السمر الصعاد
وتدرك ثأرهـا من كل باغ ... فوارس مـن عزائمها الجلاد
ويغشى حومـة الهيجـا هُمام ... يُشَدّ بضبعه السبع الشـداد
أظنوا أنّ نار الحرب تخبو ... ونور الدين في يـده الزناد[3]

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٤٤ – ١٤٥ .
٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٤٥ – ١٤٦ .
٣ – المصدر نفسه ص ١٤٦ .

أضواء على البطل :

ولا بدّ في شعر الحماسة من شخصية « البطل » ، تتجسّد فيها الفضائل المتعارف عليها في المجتمع ، وبخاصة الفضائل الحربية ، حتى تتجه إليه الأبصار ، ويستقطب الاهتمام ، ويستثير الأخيلة . ولئن كان القائد البطل أمراً لازبا في جميع الحروب ، فإن دوره في الحروب القديمة كان أبرز منه في الحروب الحديثة ، لأن دوره إذ ذاك كان يتجاوز حدود التخطيط والتوجيه من بعيد إلى المشاركة الفعلية في القتال ، مع ما ينبني على ذلك من اتصال شخصي بجنوده ، يعرّفهم على ما يستمتع من فضائل ومزايا ، قائداً ومقاتلاً .

وإذا ما تذكّرنا أن الجماعة الإسلامية بقيت منذ الغزو الصليبي الأول ، تبحث عن القائد الذي يجمع شتاتها ، ويوحّد طاقاتها ويوجهها الوجهة الصحيحة ، فإننا ندرك إذ ذاك كيف نظرت هذه الجماعة إلى قائد كنور الدين ، جمع في شخصه الصورة المثلى للقائد المسلم ، كما ارتسمت في أذهان المسلمين منذ أيام الرسول عليه السلام ، ثم في عهد خلافة الراشدين من بعده .

ولا مراء في أن عماد الدين زنكي كانأول من تزعّم ردّة الفعل الإسلامي القوية للغزو الصليبي ، وأنه هو الذي بعث الآمال الخابية في نفوس المسلمين . ولكنّ عماد الدين بقي في الدرجة الأولى ، القائد العسكري ، والحاكم الحازم ، يبث الهيبة ، دون أن يستهوي الأفئدة . في حين أن ولده نور الدين

قد جمع إلى شجاعة والده وهيبته وحسن إدارته ، السمات التي يتطلّع الإنسان المسلم إلى توافرها في الحاكم ، من عدل وتقوى وحدب ورأفة وحزم وحسن سياسة وقيادة ، وعلم واستنارة . وكل ذلك يستقرئه المرء ، مما كتب عنه المؤرخون ، وقد جرت الاشارة إليه في صفحات ماضية من هذا البحث .

من أجل ذلك ، كان نور الدين يمثل أمل أمة ، وتطلّعات جماعة ، إذ رأوا فيه احياء لشخصية الخليفة الراشدي ، في وقت اشتدت فيه حاجة المسلمين إلى مثل هذا الحاكم ، بعد أن بلوا من سوء الحكام وأنانيتهم ما أذلّهم وأفقدهم أرضهم وأوطانهم . والمتتبع للتاريخ الإسلامي ، منذ نشأة الإسلام وإلى أمد غير بعيد ، لا بد أن يلحظ أن شخصيّة القائد الصالح في المجتمع الإسلامي ، لم تنسلخ يوماً عن شخصية الإنسان التقي .

من هنا كان نور الدين تجسيداً للقائد الصالح الذي جمع بين تقوى الأتقياء وشجاعة الشجعان ، أو كما قيل فيه بحق :

جمع الشجاعة والخشوع لربّه ما أحسن المحراب في المحراب[1]

وربما يرى المحدثون في التركيز على شخصية القائد والاهتمام الكبير بها ، نوعاً من عبادة الفرد وتقديس الحاكم ، ومن ثمّ الاستهانة بالشعب والأفراد العاديين ، الذين يضطلعون فعلاً بالأعباء ، في الحرب والسلم على السواء . بيد أن هذا مخالف للواقع ، إذ إن دور القائد الصالح في استغلال طاقات الجماعة التي ينتمي إليها في الحرب والسلم على السواء، كان وما يزال أمراً أساسياً لتنسيق هذه الطاقات واستعمالها على الوجه الصحيح، وهذا القول لا ينطبق على شرق دون غرب أو غرب دون شرق ، بل على الناس جميعاً في كل مكان ، وايراد الأمثلة على ذلك من التاريخ القديم والحديث يعد نافلة من النوافل .

---

١ – انظر الروضتين ج١ ق١ ص ١٤ .

لا عجب إذن ، أن نرى أن الصورة التي رسمها ابن القيسراني لبطله نور الدين في شعره ، هي الصورة المثالية للحاكم المسلم ، كما تخيلها جمهور المسلمين منذ عهد الرسول والخلافة الراشدة . ولا تختلف الصورة التاريخية لنور الدين عن الصورة الشعرية عند ابن القيسراني ، إلا في بعض شطحات شعرية مغرقة ليست غريبة على أخيلة الشعراء الجامحة .

وأبرز صورة لنور الدين يقدمها ابن القيسراني في شعره ، صورة الإنسان المجاهد التقي ، وهي الصورة الطبيعية لمقاتل يقاتل تحت لواء الدين ، ضد أعداء يقاتلون باسم الدين . والشواهد الشعرية على هذه الصورة كثيرة ، وقد مرّ بنا في أمكنة مختلفة من هذا البحث نماذج منها ، ولذا فإننا نجتزىء بهذه الأبيات التي تصوّر نور الدين جامعاً ما بين أصفى صور التقوى وأقوى صور الشجاعة في الجهاد :

لك المساعي الغرّ يـا جـامعاً ... من طرفيها بين أضدادهـا
يغشى الوغى أفرس فرسانها ... وفي التقى أزهـد زهّادها
فأنت نسكاً غيـث أبـدالها ... وأنت فتكاً ليث آسـادها
في أمة أنت حـمـى دينها ... حيناً وحيناً شـمس عبادها
يطوي بك العمـر إلى غاية ... حسبك تقوى الله مـن زادها[1]

وتزداد مزايا نور الدين وضوحاً واشراقاً حين يقارن بمن هم دونه من الحكام المتخاذلين كما في قول ابن القيسراني :

يا ساهد الطرف والأجفان هاجعة ... وثابت القلـب والاحشاء تضطرب

* * *

من كان يغزو بلاد الشرك مكتسباً ... من الملوك ، فنور الدين محتسب

* * *

كنا نعدّ حمى أطرافنا ظـفـراً ... فملكتك الظبا ما ليس تحتسب[2]

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٢٠٩ .
٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٥٣ – ١٥٤ .

أو قوله :

سام الشآم ويا لها من صفقة ... لولاه ما أعيت على يد سائم
ولشمّرت عنها الثغور وأصبحت ... فيها العواصم وهي غير عواصم
تلك التي جمحت على من راضها ... ودعوت فانقادت بغير شكائم[1]

وقوله :

رددت الجهاد الصعب سهلا سبيله ... ويا طالما أمسى ومسلكه وعر
وأطمعت في الافرنج من كان بأسه ... تخوّف أن يعتدّه منهم نكر
وأقحمت جرد الخيل أعلى حصونها ... ولولاك لم يهجم على كافر كفر
ومن يدّعي في قتلك الشرك شركة ... إذا لم يكن عند القوافي له ذكر[2]؟

على أن تفاعل الشجاعة مع التقوى ، كان يمثّل جانباً واحداً عظيماً في شخصية البطل . ومن هنا حرص ابن القيسراني على أن يقدم لنا في شعره مجموعة الفضائل التي تمثل جوانب البطل المختلفة . ففي الأبيات التالية يقدم لنا الشاعر نور الدين مقاتلاً عظيماً قادراً على قيادة الرجال ، وحاكماً صالحاً وإنساناً فياض النفس بالمشاعر الكريمة ، ورجلاً يجلّ المعرفة و يتحلى بها :

يُنمى إلى ملك إذا قسم الندى ... والبأس كان المكتنى بالقاسم
متسربل بالحزم ساعة تلتقي ... حلق البطان على جواد الحازم
ما بين منقطع الرقاب وسيفه ... إلا اتصال يمينه بالقائم
يا ابن الملوك وحسب انصار الهدى ... ما عند رأيك من ظُبى وعزائم
قوم إذا انتضت السيوف اكفهم ... قُلتَ الصواعق في متون غمائم
أنشأت في حلب غمامة رأفة ... أمددت ديمتها بِنَوْءٍ دائم

---

١ – الخريدة ج١ ص ١١٣ .
٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٨٧ – ١٨٨ .

ألحقت أهل الفقر فيهـا بالغـنى أمن المؤمل ثروة للعادم[1]

والإشارة إلى العدالة الاجتماعية التي حققها نور الدين في ظل حكمه الرحيم ، جديرة بالتنبّه ، لا سيما انها اشارة تستقى من واقع لا من خيال شاعر .

ومن الطريف في تنويه ابن القيسراني بمزايا بطله نور الدين ، أن الشاعر وهو عربيّ النسب — حتى ليلحقه بعضهم بخالد بن الوليد — قد حاول أن يتجاوز « تركية » ممدوحه بلباقة ، حين نسبه إلى الصلاح والمعالي من ناحية ، وأشاد بدفاعه عن ملة النبي العربي من ناحية أخرى . فها هو يقول فيه :

شيم الصالحين في جُبَّرِ الترك وكم من سكينة في قباء
صاغك الله من صميم المعالي حيث لا نسبة سوى الآلاء
وكأن القباء منك لما ضمّ من الطهر مسجدٌ لقباء[2]

ويقول :

تدارك ملّة العربي ذبّا إلى أن عدّه منه معدّ
وحلّ ذرا العواصم وهي نهبى فأجلى الشرك حتى ليس ضدّ
ثنى يده عن الدنيا عفافاً ومال بها عن الأهواء زهد
رأى حطّ المكوس عن الرعايا فأهدر قبلُ ما أنشاه بعد
ومدّ لها رواق العدل شرعا وقد طُوِيَ الرواق ومن يمدّ
وبات وعند باب العرش منها لدولته دعاء لا يردّ[3]

ومما يسترعي النظر في تمجيد ابن القيسراني لنور الدين ، أن الشعر الذي نظم في هذا التمجيد ، قد خلا من الاستماحة التي لم تخلُ منها قصائد أخرى

---

١ — الخريدة ج١ ص ١١٣ ، ١١٤ .
٢ — كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٤٥ .
٣ — المصدر نفسه ص ٤٨ .

لابن القيسراني قيلت في أشخاص آخرين في مناسبات قديمة . ولعلّ هذا مما يعضّد الاعتقاد بأن شعر ابن القيسراني في نور الدين ، يمثل اعجاباً صادقاً بالبطل الإسلامي ، وأن هذا الشعر لا يترجم عن مشاعر ابن القيسراني وحده، بل عن مشاعر الجماعة الإسلامية كذلك :

ولعمري لـو استطاع فـداك القـوم بالأُمهـات والآبـاء[1]

* * *

يا سائلي عن نهـج سيرته هل غير مفرق هامة الفجر
عدلٌ حقيق مـن تأمّلـه ان يحيي العُمَريْن بالذكر[2]

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٤٦ .
٢ – المصدر نفسه ص ٤٦ – ٤٧ .

obeikandl.com

موقف من العدوّ :

في كل مامضى من أوجه استخدام ابن القيسراني لفنّه الشعري في المعركة ضد الصليبيين ، رأينا الشاعر يستعمل الكلمة المؤثرة سلاحاً للاستثارة والاستنهاض والحشد والتعبئة ، وهو يتلمس كل وسيلة من الوسائل الحافزة لشعبه على القتال وطرد العدوّ واسترداد الأرض . وإذا كانت هذه هي الغاية الرئيسية من شعر ابن القيسراني الجهادي ، فليس بعجيب إذن ، أن يكون من وسائل الاستثارة والحض على القتال تصوير العدو الصليبي تصويراً يثير الحفيظة ، ويشحذ الهمم ويضاعف الجهد .

وقد يذهل الدارس لشعر ابن القيسراني ،حين يرى هذا الفصام الحادّ ما بين الشاعر اللاهي ، الذي يتنقل مابين أنطاكية وأرباضها ، يتتبع الجمال الفرنجي حيثما كان ، ويتغنى به وينشد اللذّة في كنف الصليبيين ، بريئة أو غير بريئة ، وكأنما هذا الصراع القاسي المرير الذي يدور في المنطقة منذ نصف قرن لا يعنيه ، وبين الشاعر المسلم المندمج في الجماعة الإسلامية ، المواكب لوقائعها مع الصليبيين ، الممجّد لأبطالها ، المزري بأعدائها . فكأنما كانت رحلته إلى أنطاكية سنة ٥٤٠ هـ ، « إجازة » من العمل ، تحرّر خلالها من كل ارتباطاته السابقة ، وعاش حياة ترويح عن النفس ، لا تعترف بالانتماءات والولاءات من أي نوع ، حتى إذا ما عاد إلى جوّه الأصيل ،

استعاد مرة واحدة كل ارتباطاته وانتماءاته !

فالقيسراني المعجب بالحضارة الإفرنجية ومعطياتها في أنطاكية، انسان لا يكاد يمتّ بصلة إلى القيسراني الذي يقف من الإفرنج موقف العداوة المرة ، وهو يصف وقائع المسلمين معهم . فهو يجادلهم في عقيدتهم ويزري بهم ، ويتحدّاهم ويشمت بهم في هزائمهم ، ويسخر منهم سخرية قاسية مريرة ، ويحرّض عليهم ، ويجد متعة كبرى فيما يلحقهم من عذاب وشقوة وهوان .

لقد رأينا ابن القيسراني في « ثغرياته » يقف موقف عدم المبالاة بالشرائع والعقائد . ولكنه انسان آخر ، إذ يعقد مجموعة من المقابلات بين الصور الإسلامية والمسيحية ، حين يمدح نور الدين :

بل غرْتَ للإسلام حتى لقد ... دان له من بالطواغيت دان
رعت نواميس نواقيسها ... بجلبة الآذان وقت الأذان
تمحو تصاوير الدّمى عن يد ... تبني المحاريب خلال المجان
هذا وكم أنشأت من منبر ... فارسه فارس سحر البيان[1]

وهو يرى في فتح الرّها على يد عماد الدين ، أمراً يتجاوز الصراع العسكري إلى الصراع العقدي :

لقد كان في فتح الرهاء دلالة ... على غير ما عند العلوج اعتقاده
يرجّون ميلاد ابن مريم نصرة ... ولم يغن عند القوم عنهم ولاده
مدينة افك منذ خمسين حجة ... يغلّ حديد الهند عنها حداده[2]

وهزيمة الصليبيين على دمشق ، تربط كذلك بمظاهر عقيدتهم وطقوسها :

فغادروا أكثر القربان وانجفلوا ... وخلّفوا أكبر الصلبان وانهزموا
مستسلمين لأيدي المسلمين وقد ... أغرى القنا بتمادي خطفهم نهمُ

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٥٠ .
٢ – المصدر نفسه ص ٩٦ .

وحاولوا المسجد الأدنى فما عبرت عن مسجدالقدم الأقصى لهم قدم[1]

وهو إذ يصور بطله سيفاً قاطعاً من سيوف الإسلام ، ينعت العدو الصليبي بنعوت قاسية ، ويشبه الصليبيين بضُلاّل الأمم القديمة :

وصارم الإسلام لا ينثني إلاّ وشلو الكفر مقدود
وإنما الافرنج من بغيها عادٌ وقد عادَ لهم هود[2]

وبعد موقعة « إنّب » يربط ابن القيسراني ما بين هزيمة الصليبيين ومجموعة من المعاني الدينية :

أغرتْ سيوفك بالافرنج راجفة فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منهـا بقاصمه أودى بها الصّلب وانحطّت بها الصلب
غضبت للدين حتى لم يفتك رضا وكان دين الهدى مرضاته الغضب
طهّرت أرض الأعادي من دمائهم طهارة كل سيف عندها جنـب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسباً من الملوك فنور الدين محتسب[3]

ولا يرى ابن القيسراني أن ثمة مجالاً للتساهل مع عدو غاصب محتل ، فهو لذلك يرى أن السبيل الوحيد لعلاج الوجود الصليبي في المنطقة ، هو مقارعته حتى ينتهي بالسيف . وقد سبق ايراد الأمثلة على إيمان الشاعر بالقوة سبيلاً إلى التخلص من الصليبيين . ولما كانشعر ابن القيسراني المرتبط بالحروب الصليبية ، مما وصل إلينا ، قد قيل معظمه بعد ردة الفعل الإسلامية الممثلة في قيام الأسرة الزنكية ، فإن لهجة التحدّي والتهديد واضحة في هذا الشعر ، كما يتضح من الشواهد التالية :

حـذار منا وأنى ينفـع الحذر وهي الصوارم لا تبقي ولا تذر

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٤٢ .
٢ – المصدر نفسه ص ١٤٥ ، ١٤٦ .
٣ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٥٣ .

وأين ينجو ملوك الشرك من ملك ... من خيله النصر لا بل جنده القدر
فلا تخف بعدها الافرنج قاطبة ... فالقوم إن نفروا ألوى بهم نفر
ان قاتلوا قُتلوا أو حاربوا حُربوا ... أوطاردوا طُرِدوا، أوحاصرواحُصروا

ويصبح التحدي والتهديد والتحريض على العدو أقوى ، حين يحرز عماد الدين النصر الكبير باحتلاله الرّها عام ٥٣٩ هـ ، وإذ ذاك يقول القيسراني :

هو السيف لا يغنيك إلا جلاده ... وهل طوق الأملاك إلا نجاده
إلى أين يا أسرى الضلالة بعدها ... لقد ذلّ غاويكم وعزّ رشاده
رويدكمُ لا مانع من مظفر ... يعاند أسباب القضاء عناده
وقل لملوك الكفر تسلم بعدها ... ممالكها ان البلاد بلاده
كذا، عن طريق الصبح فلينته الدجى ... فيا طالما غال الظلام امتداده
ومن كان أملاك السموات جنده ... فأية أرض لم ترضها جياده
ولله عزم ماء سيحان ورده ... وروضة قسطنطينيَه مستراده[٢]

وتتصاعد نغمة التحدّي والتهديد ، مع تصاعد العمليات الحربية الإسلامية كما يتضح من أبيات لابن القيسراني من قصيدة قالها في نور الدين بعد انتصاره في معركة « يغرا » سنة ٥٤٤ هـ :

أظنوا أن نار الحرب تخبو ... ونور الدين في يده الزناد
جرت بالنصر أقلام العوالي ... وليس سوى النجيع لها مداد
وطالت أروس الاعلاج خصباً ... فنادى السيف : قد وقع الحصاد
فسر واستوعب الدنيا فتوحاً ... فلا هضب هناك ولا وهاد[٣]

وهذه نصيحة يقدمها الشاعر إلى أعداء نور الدين ، وهو يعدد وقائعه التي انتصر فيها على الصليبيين :

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٨٨ .
٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٩٦ – ٩٧ .
٣ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

فقل للملوك الخافقين نصيحة ... كذا عن طريق الليث يزأر غلبه
وخلّوا عن الآفاق، فالشرق شرقه ... بحكم الردينيّات والغرب غربه
ولا يعتصم بالدرب طاغ على القنا ... فإن القنا في ثغرة النحر دربه[1]

والصليبيون عند ابن القيسراني قوم غدر لا يؤمن جانبهم ، ولذا فإن ما نزل بهم من هزائم ، كان جزاء وفاقاً على خيانتهم :

خانوا فخانت رماح الطعن أيديهم ... فاستسلموا وهي لا نبع ولا غرب
كذاك من لم يوق الله مهجته ... لاقى العدى والقنا في كفه قصب[2]

وتصرّف « القمص » الصليبي يتسم كله بالغدر والخديعة والخيانة في رأي الشاعر :

وأرى صياح القمص كان خديعة ... فطغى وجارَ وليس ثمّ وِجار
سأل الصنيعة غير محقوق بهـا ... والخير يهدم ما بنى الختّار
ذئبٌ إذا ما غبتَ أقدم عاتيا ... إقدام من لم يدنُ منـه قرار
أمضى السلاح على عدوّك بَغْيُهُ ... بالغدر يُطعَن في الوغى الغدار[3]

وعندما قتل « الابرنز » صاحب أنطاكية في معركة مع نور الدين ، لا يَسْلَم برغم الاعتراف بشجاعته من وصمة الغدر كذلك ، ولذا فهو في رأي الشاعر قرين الذئب ، ولو كانت له شجاعة الليث :

أخو الليث لولا غَدْرةٌ نزعتْ به ... إلى الذئب ان الذئب شيمته الغدر
أتى رأسه ركضاً وغودر شلوه ... وليس سوى عافي النسور له قبر[4]

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٨٩ .
٢ – المصدر نفسه ص ١٥٣ .
٣ – المصدر نفسه ص ١٧٦ .
٤ – المصدر نفسه ص ١٨٦ .

والزراية بالعدو ، والاستهانة بأمره ، بعد أن فقد تفوّقه ، وأخذ يذوق طعم الهزائم ، يصوّرها ابن القيسراني في غير ما مكان ، مع لمسات مبالغة ليست غريبة في مقام كهذا . فهو يقول في هزيمتهم أمام عماد الدين عام ٥٣٤ هـ :

سلّوا سيوفاً كأغماد السيوف بها ... صالوا، فما غمدوا نصلا ولا شهروا
حتى إذا ما عماد الدين أرهقهم ... في مأزق من سناه يسبرق البصر
ولّوْا ، تضيق بهم ذرعاً مسالكهم ... والموت لا ملجأ منه ولا وزر
وفي المسافة من دون النجاة لهم ... طول، وان كان في اقطارهم قصر[1]

وحين يهنىء الشاعر وزير الموصل جمال الدين بفتح الرّها للمرة الثانية على يد نور الدين عام ٥٤١ هـ ، تتخذ زرايته بالعدو واستخفافه به هذا الشكل الساخر :

فلا تحفلنّ بصول الذئاب ... وقد زأر الأسد الباسل
وقد قلّدوا السيف تحصينهم ... ولكنه الناصر الخاذل
وهل يمنع السور من طالع ... يشايعه القدر النازل
أرى القسّ يأمل فوت الرماح ... ولا بدّ أن يضرب السابل
يقوّى معاقله جاهداً ... وهل عاقل بعدها عاقل ؟
وكيف بضبط بواقي الجهات ... من فات حسبته الحاصل[2]

وحين سقطت الرّها بيد عماد الدين سنة ٥٣٩ هـ ، يرشد ابن القيسراني الهاربين الصليبيين إلى طريق الهرب : الطريق المؤدي إلى أرض أوروبة التي جاءوا منها :

لا أين يا أسرى المهالك بعدها ... ضاق الفضاء على نجاة الهارب

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٨٨ .
٢ – الخريدة ج١ ص ١٠٩ ، ١١٠ .

شدّاً إلى أرض الفرنجة بعدها ان الدروب على الطريق اللاحب[1]

ويقتل « ريموند » أمير أنطاكية عام ٥٤٤ هـ في معركة « إنّب » فيحمل رأسه على سنان رمح ، فتكون هذه السخرية القاسية ، التي توضح ما تخلّفه الحروب في النفوس من قسوة في المشاعر ، واستهانة بالقتل ومناظر الموت :

فَملّكوا سلب « الابرنز » قاتله وهل له غير أنطاكية سلب؟
من للشقي بما لاقت فوارسه وإنْ بسائرها من تحته قتب
عجبتُ للصعدة السمراء مثمرة برأسه إنّ إثمار القنا عجب
سما عليها سموّ الماء أرهقه أنبوبه في صعود أصلها صبب
ما فارقتْ عذبات التاج مفرقه إلا وهامته تاج ولا عذب
إذا القناة ابتغت في رأسه نفقا بدا لثعلبها من نحره سرب[2]

وهذا الوصف التفصيلي لرأس العدو على سنان الرمح ، يجمع جمعاً رهيباً ما بين السخرية والشماتة . ويبدو أن عرض هذه الصورة الرهيبة للقائد الصليبي القتيل ، قد راق للشاعر ، لأنه يقدمه في صورة أخرى في قصيدة ثانية له ، حين يقول ساخراً من المنهزمين :

وطالت أروُس الاعلاج خصبا فنادى السيف ، قد وقع الحصاد
وللابرنز فوق الرمح رأس توسّد والسنان له وساد
ترجّل للسلام ففرّسوه وليس سوى القناة له جواد
غضيض المقلتين ولا نعاس وغائرها وليس به سهاد[3]

وإذ يؤسر الأمير الصليبي « جوسلين » بعد سنة واحدة من مقتل « ريموند » أمير أنطاكية ، يجمع ابن القيسراني في قصيدة واحدة ، بصورة ساخرة شامتة ،

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٩٩ .
٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٥٤ .
٣ – المصدر نفسه ص ١٤٦ – ١٤٧ .

ما بين قصتي القتل والأسر :

فلا ينتحل من بعدها الفخر دائل ... فمن بارز « الابرنز » كانله الفخر
ومن بزّ أنطاكية من مليكها ... أطاعته الحاظ المؤلّلة الخزر
أخو الليث لولا غدرة نزعت به ... إلى الذئب ان الذئب شيمته الغدر
أتى رأسه ركضا وغودر شلوه ... وليس سوى عافي النسور له قبر
وقد كان في استبقائه لك منّة ... هي الفتك، لو لم تغضب البيض والسمر
كما أهدت الأقدار للقمص أسره ... وأسعد قرن من حواه لك الأسر
طغى وبغى عدوا على غلوائه ... فأوبقه الكفران : عدواه والكفر
وألقت بأيديها إليك حصونه ... ولو لم تجب طوعا، لجاءبها القسر[1]

وفي قصيدة أخرى نظمها سنة ٥٤٥ هـ ، وعدّد فيها وقائع نور الدين ، أعاد ابن القيسراني الحديث عن القتيل والأسير . فهو يقول في القتيل :

وعاصى على العاصي بأرعن خاطب ... دم الافك حتى أنكح النصل خطبه
بانتبَ لما أكسب المال وانثنى ... يصاحب أنطاكية وهو كسبه
غداة هوى شطرين : للسيف رأسه ... وللرمح حتى توّج الرأس قلبه
على حين للخطيّ فيه عوامل ... يعاقبه خفض الحسام ونصبه[2]

وأما الأسير ، فيخصّ بهذه الصورة الساخرة ، التي تذكر بصورة الأسير الرومي في شعر المتنبي[3] :

ولما نزا بالقمص عجب هوى به ... على أم رأس البغي والغدر عجبه
فأصبح في الحجلّيْن ينكر خطوه ... بعيد على الرجلين في السعي قربه

---

١ – كتاب الروضتين ص ١٨٦ – ١٨٧ .
٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٨٨ .
٣ – انظر ديوان المتنبي شرح اليازجي ج٢ ص ٩٣ .

تعاقبه البشرى بأخذ حصونه فيا عانيا ، ضرب البشائر ضربه
تناجي « عزاز » باسمه « تلّ باشر »[1] فيلعنه لعـن الصريخ وسبه
فإن يكن المقهور من ثُلّ عرشه فهذا عمود الكفر قد طاح طنبه[2]

---

١ – من حصون « جوسلين » الأسير .
٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٨٩ .

obeikandl.com

ثانياً : الأداء الفنّي :

الغرض من هذا الجزء الختاميّ في تقويم شعر ابن القيسراني المرتبط بالوجود الصليبي في أرض الشام ، أن نتبيّن الوسيلة الفنيّة التي أدّى بها الشاعر عن نفسه ، وذلك أمر لا بدّ منه في عمليّة التقويم ، لأن الحكم على المادة الشعريّة لا يمكن أن يكون صحيحاً أو متكاملاً إذا ما اكتفى فيه بالنظر إلى الموضوعات التي عالجتها هذه المادة ، وما ينبثق عن تلك الموضوعات من تفاريع وتشعبّات .

ولما كان النهج الذي نتوخاه في تقويم شعر ابن القيسراني ، عدم اعطاء أحكام سلفيّة على فن الشاعر ، يُتّكأ فيها على أقوال السابقين أو اللاحقين ، أو استمداد الأحكام من الاطار العام للفنّ الشعري في زمنه وموطنه ، فإن طريقتنا سوف تستند في الدرجة الأولى على الاستقراء الداخليّ لشعره ، أي على الدراسة التفصيلية للنصوص ومن ثمّ ، استخلا ص ما تتميز به من خصائص. وأيّما تحويم خارج هذا الاستقراء ، لن يتعدى كونه وسيلة من وسائل التعليل والتفسير والربط .

وهنا ينبغي أن نتذكر أننا بازاء نوعين من المواد الشعرية المرتبطة بالوجود الصليبي في أرض الشام ، وهما مختلفان اختلافاً بيّناً من حيث الموضوع . وأحد هذين النوعين ما ارتبط من شعر القيسراني بالحروب الصليبية . والثاني ما تعلق منه بأحاسيس الشاعر وانطباعاته الذاتية عمّا شاهده في أنطاكية وأرباضها

من مظاهر الوجود الصليبي . ولا ريب أن اختلاف الموضوع في كلّ يترك أثره في الخصائص الفنيّة للشعر ، نظراً لما بين موضوع النصّ الأدبي وأسلوبه من ارتباط .

ومن نافلة القول ، أن شعر ابن القيسراني المرتبط بالحروب الصليبية أوفر عدداً وأوسع مدى وأرحب غاية من شعر « الثغريات » الذي لم يتعدّ كونه ثمرة زيارة خاطفة قام بها الشاعر لبعض بقاع من الأرض المحتلة في الشمال . ولذا ، فإن تناول الشعر الحربيّ بالدراسة والتحليل لا بدّ أن يأتي أولاً ويكون له مكان الصدارة .

obeikandl.com

النزعة الاتباعية :

مفتاح التعرف على خصائص هذا الشعر الفنية ، كما يتراءى لكاتب هذه السطور من خلال استقصاء ما بين أيدينا منه ، هو التبعيّة لشعر الأقدمين الحماسي ، وبخاصة شعر أبي الطيب المتنبي الذي نظمه في حروب سيف الدولة الحمداني مع الروم ، وإلى حد أقلّ ، لشعر أبي تمام الحماسي ، وخاصة ما نظمه في حروب الدولة العباسية مع الروم كذلك .

وهذه التبعيّة ، لم تكن تبعيّة عفويّة نتجت عن إلفةٍ طويلة للشاعر بهذا الشعر الحماسي الموروث ، بل كانت تبعية واعية مقصودة كما سنرى في الشواهد اللاحقة . ولذا ، فهي لم تقتصر على التأثر بالجوّ العام لقصائد المتنبي ، بل تجاوزت ذلك إلى تفصيلات توحي باقتباس متعمد مدروس للصور والأخيلة والتراكيب والألفاظ والموسيقى ! وقبل أن نعلّل اتجاه الشاعر على هذه الشاكلة إلى شاعر القرن الرابع الهجري الكبير ، نورد مجموعة من الشواهد من شعر ابن القيسراني المتأثر بشعر المتنبي ، ثمّ بشعر أبي تمام ...

يقول ابن القيسراني في انتصار مجير الدين صاحب دمشق على الصليبيين عام ٥٢٣ هـ :

صاب الغمام عليهم والسهام معا فما دروا أيها الهطالة السديم[1]

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٤١ .

والصورة المضمنة في هذا البيت ، والتي تصور الأعداء المنهزمين لا يفرقون بين حدّ السلاح يخز أبدانهم وحبات المطر الشديد تضرب أجسامهم، ذات صلة قوية جداً بقول المتنبي في الروم المنهزمين أمام سيف الدولة :

يغشاهم مطر السحاب مفصّلا بمهنّد ومثقف وسنان[1]

وقول ابن القيسراني في القصيدة نفسها :

فغادروا أكثر القربان وانجفلوا وخلّفوا أكبر الصلبان وانهزموا[2]

إنما هو صورة أخرى من قول أبي تمام في معركة عمورية :

أحسى قرابينه صرف الردى ومضى يحثّ أنجى مطاياه على الهرب[3]

ومطلع قصيدة ابن القيسراني التي نظمها في فتح الرّها :

هو السيف لا يغنيك إلا جلاده وهل طوّق الأملاك إلا نجاده[4]

يذكر في آن واحد ببيتين أحدهما لأبي تمام والآخر للمتنبي ، وكلاهما مطلع لقصيدة . أما بيت أبي تمام فهو :

السيف أصدق إنباءً من الكتب في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب[5]

وأما بيت المتنبي فهو :

أعلى الممالك ما يبنى على الأسل والطعن عند محبيهن كالقبل[6]

وإذا كان أبو تمام قد ربط ما بين « عمورية » « وبدر » حين قال :

إن كان بين صروف الدهر من رحم موصولة أو ذمام غير منقضب

---

١ – ديوان المتنبي ، شرح اليازجي ط بيروت ١٩٦٤ ج٢ ص ٢٥٧ .

٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٤٢ .

٣ – ديوان أبي تمام ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف ١٩٦٤ ج١ ص ٦٨ .

٤ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٩٦ .

٥ – ديوان أبي تمام ج١ ص ٤٠ .

٦ – ديوان المتنبي ج٢ ص ٣٤ .

فبين أيامك اللاتي نصرت بهـا وبين أيام بدر أقرب النسب[1]

فإن ابن القيسراني يربط كذلك ما بين فتح الرّها ومعركة بدر بقوله :

لله أيـة وقفـةٍ بدريـةٍ نصرت صحائبها بأيمن صاحب[2]

وفي قصيدة ابن القيسراني التي مدح بها وزير الموصل أبا جعفر الأصبهاني بعد فتح الرّها الثاني عام ٥٤١ هـ ، والتي مطلعها :

أما آن أن يزهق الباطـل وان ينجز العدة الماطـل[3]

نجد صورة من قصيدة المتنبي التي مدح بها سيف الدولة بعد انتصاره على « الخارجي » والتي مطلعها :

إلامَ طماعيـة العـاذل ولا رأى في الحـب للعاقـل[4]

ووجه الشبه ما بين القصيدتين ، غير مقتصر على الوزن والقافية ، بل يتعداهما إلى عدد من التفاصيل الأخرى . فهناك التساؤل الذي يحمل طابع الاستبطاء في مطلع كل من القصيدتين ، وهناك السيف الذي يتكفل باعناق ملوك الضلال عند ابن القيسراني :

الى كم يغب ملوك الضلال سيف بأعناقها كافل [5]

مقابل الجيش الذي يتكفّل بالأمور في قصيدة المتنبي :

فلبيّته بك في جحفل له ضامن وبه كـافل[6]

---

١ – ديوان أبي تمام ، شرح التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف ١٩٦٤ ج ١ ص ٧٣ .

٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٩٨ .

٣ – المصدر نفسه ص ١٢٦ .

٤ – ديوان المتنبي ج٢ ص ٢٦ .

٥ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٢٦ .

٦ – ديوان المتنبي ج٢ ص ٢٨ .

وإذا اختار المتنبي أن يستعمل لفظي « اللجّ » « والساحل » حين يقول :

يشمّر للجّ عن ساقه ويغمره الموج في الساحل[1]

فإن ابن القيسراني استعمل كليهما كذلك في بيت واحد من القصيدة المذكورة :

فإن يك فتح الرّها لجّةً فساحلها القدس والساحل[2]

والأبيات التي تنضح بالقوّة وتدعو إليها في قصيدة ابن القيسراني تتواءم كثيراً مع دعوة المتنبي إلى القوة في قصيدته المذكورة وفي شعره عامة. يقول ابن القيسراني :

فلا تحفلنّ بصول الذئاب وقد زأر الأسد الباسل
كذا ما انثنت قط صمّ الرماح أو يتثنّى القنا الذابل
هو السيف إلا تكن حاملا لبزّته بزّك الحامل
وهل يمنع الدين إلا فتى يصول انتقاماً فيستأصل[3]

ومشايعة القدر للممدوح ، التي عبّر عنها ابن القيسراني بقوله :

وهل يمنع السور من طالع يشايعه القدر النازل[4]

تمثل فكرة أثيرة عند المتنبي يرددها كثيراً في مدائحه لسيف الدولة ، كأن يقول على سبيل المثال ، مطوّعاً نوازل القدر لممدوحه :

تغدو المنايا فلا تنفك واقفة حتى يقول لها عودي فتندفع[5]

وحين يقول ابن القيسراني في هذه القصيدة :

---

١ – ديوان المتنبي ج٢ ص ٣١ .
٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٢٧ .
٣ – الخريدة ج١ ص ١٠٩ .
٤ – الخريدة ج١ ص ١١٠ .
٥ – ديوان المتنبي ج٢ ص ٩٣ .

وخضّم غمار الرّدى بالرّدى وعن نفسه يدفع القاتـل[1]

فإنه يكاد يسلخ معنى المتنبي في قصيدة بائيّة له حيث يقول :

وكم ذدت عنهـم ردى بالرّدى وكَشَّفْتَ من كُرب بالكرب[2]

وفي قصيدة ابن القيسراني هذه ، نجد بيتين يعرّض فيهما برغبته في اكرام الممدوح له ، بعد أن عمّ كرم الممدوح الآخرين ، وهما قريبا الشبه في فكرتهما من بعض أبيات العتاب التي تخلّلت قصيدة المتنبي الميميّة المشهورة في عتاب سيف الدولة : يقول ابن القيسراني :

فهل لي على البعد من قربة يدل بها فضلك الدائـل
فإن الغمام بعيـد المنـال وفي كل فجّ لـه نـائـل

ويقول المتنبي في « الميميّة » الآنفة الذكر :

ليت الغمام الذي عندي صواعقه يزيلهنّ إلى مـن عنده الديم[3]

* * *

وإذا لذّ للمتنبي في مرحلة الشباب أن يقارن نفسه بالنبي صالح المبعوث إلى « ثمود » الضالة حين يقول :

أنا في أمّـة تداركها الله غريب كصالـح في ثمـود[4]

فقد قارن ابن القيسراني ممدوحه نور الدين بالنبي « هود » المبعوث إلى « عاد » :

---

١ – الخريدة ج١ ص ١١٠ .
٢ – ديوان المتنبي ج٢ ص ٩٣ .
٣ – ديوان المتنبي ج٢ ص ١٢٢ .
٤ – ديوان المتنبي ج١ ص ١١٦ .

وإنمـا الافرنج مـن بغيها « عاد » وقد عاد لهم « هود »[1]

* * *

أما قصيدة ابن القيسراني الطويلة التي نظمها بعد معركة «إنّب» فانها تتأثر خطى أبي تمام والمتنبي في آن واحد . ومن الذي يقرأ أبيات ابن القيسراني التالية ، ولا يقارنها بنظائرها في شعر أبي تمام والمتنبي :

هذي العزائم لا ما تدّعي القضب وذي المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللائي متى خطبت تعثرت خلفها الاشعار والخطب
صافحت يا ابن عماد الدين ذروتها براحة للمساعي دونها تعب[2]

ويقابل هذه الأبيات على التوالي من قصيدة أبي تمام في « عمورية » :

السيف أصدق إنبـاء من الكتب في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب

* * *

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب

* * *

بصرت بالراحـة الكبرى فلم ترها تنال الا على جسر من التعب[3]

والأبيات الثلاثة التي اخترت من قصيدة ابن القيسراني اخترت على سبيل التمثيل لا الحصر ، إذ إن التشابه ما بين عدد كبير من أبياتها وبين أبيات لأبي تمام والمتنبي واضح جداً . ومع أننا لا نبتغي ها هنا استقصاء ، فقد يكون مما يفيد أن نضع أيدينا على أمثلة أخرى لهذا التشابه . فقول ابن القيسراني في قصيدته :

يا ساهد الطرف والاجفان هاجعة وثابت القلب والاحشاء تضطرب

* * *

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٤٦ .
٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٥٢ .
٣ – ديوان أبي تمام ص ٤٠، ٤٥، ٧٣ .

والنبل كالوبل هطال وليس لـه سوى القسي وأيـد فوقها سحب

* * *

أنباء ملحمة لـو أنهـا ذكرت فيما مضى نسيت أيامها العرب
في كل يوم لفكري مـن وقائعه شغل فكل مديحي فيه مقتضب[1]

تناظر قول المتنبي في مقابل الأول :

أرى المسلمين مـع المشركين إما لعجز وإمـا رهـب
وأنت مـع الله في جـانـب قليل الرقاد كثير التعـب[2]

وقوله في مقابل الثاني :

يغشاهم مطر السحاب مفصّلاً بمهنّـد ومثقف وسنان[3]

وقوله في مقابل الثالث :

ليت المدائح تستوفي مناقبه فما كليب وأهل الأعصر الأول[4]

وفي مقابل الرابع :

فاذا رأيتك حار دونك ناظري وإذا مدحتك حار فيك لساني[5]

وحين يقول ابن القيسراني في قصيدة أخرى :

أحطت بهـم فكان القتل صبراً ولا طعن هنـاك ولا طـراد[6]

فإنما يسلخ قول المتنبي في سيف الدولة :

ألقت إليك دماء الروم طاعتها فلو دعوت بلا ضرب أجاب دم[7]

---

١ – الأبيات مأخوذة من الروضتين ج١ ق١ ص ١٥٣ ، ١٥٤ .
٢ – ديوان المتنبي ج٢ ص ٢٩٢ .
٣ – المصدر نفسه ص ٢٥٧ .
٤ – المصدر نفسه ص ١٣١ .
٥ – المصدر نفسه ج٢ ص ٢٥٩ .
٦ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٤٦ .
٧ – ديوان المتنبي ج٢ ص ٢٦٧ .

ومرّة أخرى ، لا بد من القول إنّ الأبيات الموردة ، لا تمثّل بأي حال من الأحوال ، استقصاء التشابه ما بين صور ابن القيسراني من ناحية ، وصور أبي تمام والمتنبي من ناحية أخرى ، وإنما هي لمجرّد التمثيل المحدّد . والواقع أن كاتب هذه السطور ، قد أحصى ارتباطات في سبعة وعشرين موضعاً ما بين أبيات لابن القيسراني وأبيات لأبي الطيب المتنبي ، دون أن يزعم لنفسه أبداً استقصاء هذه الارتباطات .

على أن من الواجب التنبيه إلى أن هذه المشابهة في الجزئيات ما بين أبيات لابن القيسراني وأبيات للمتنبي ، ليست كافية لاثبات تأثر الأول بالثاني تأثراً عاماً . وما كان القصد من التمثيل الآنف الذكر على أوجه الشبه ما بين الشاعرين في عدد من الألفاظ والصور ، إلا تخليص القول من صيغة التعميم الغائمة التي تفتقر إلى التحديد .

بيد أن هناك ، بالفعل بالاضافة إلى المشابه المنوّه عنها بين الجزئيات ، تشابها في السمات العامة ما بين شعر ابن القيسراني الجهادي وشعر أبي الطيب المتنبي الحماسي ، حيث يتأثر اللاحق خطى السابق . فهنالك تلك الفخامة والضخامة التي تميّزت بها قصائد المتنبي الحربيّة ، بما فيها من جلبة وضوضاء وعنف وحدة ، كما هو واضح على سبيل المثال في قول ابن القيسراني :

طهرت أرض الاعادي من دمائهم ... طهارة كل سيف عندها جنب
حتى استطار شرار الزند قادحه ... فالحرب تضرم والآجال تحتطب
والخيل من تحت قتلاها تجزّ لها ... قوائم خانهن الركض والخبب
والنقع فوق صقال البيض منعقد ... كما استقل دخان دونه لهب
والسيف هام على هام بمعركة ... لا البيض ذو ذمّة فيها ولا اليلب
والنبل كالوبل هطّال وليس له ... سوى القسي وأيد فوقها سحب
وللظبا ظفر حلو مذاقته ... كأنما الضرب فيما بينهم ضَرَب

وللأسنة عما في صدورهم مصادر أقلوب تلك أم قلب[1]

وحتى ذلك التركيز على الخيل الذي عرف عن المتنبي في شعره ووقف عنده بعض النقاد القدامى[2]، نجد له نظيراً عند ابن القيسراني كما في أبياته التالية:

ومسوّمات لست تدري في الوغى بقوائمٍ يدركن أم بقوادم
كل ابن سابقة إذا ابتدر المدى فلغير غرّته يمين اللاطم
يرمي بفارسه أمام طريده حتى يرى المهزوم خلف الهازم
متسربل بالحزم ساعة تلتقي حلق البطان على جواد الحازم[3]

بل إن الأمر ليتعدى التأثر العام في هذا المجال، إلى التأثر التفصيلي، كما يمكن أن يرى من مقارنة ابن القيسراني الخيل بالطيور في أول بيت من هذه الأبيات الموردة وقول أبي الطيب المتنبي في خيله:

على كل طيّار إليها برجله إذا وقعت في مسمعيه الغمائم[4]

وثمة قضايا عالجها أبو الطيب المتنبي في قصائده التي أشاد فيها بدور سيف الدولة في مقارعة الدولة البزنطيّة، مثل تنويهه بدفاع الأمير الحمداني عن دولة الخلافة[5]، نجد لها صدى في شعر ابن القيسراني، كقوله في دفاع نور الدين عن دولة الخلافة:

ونصرة دولة حاميت عنها وهل يخشى وأنت لها عماد[5]

ويسترعي النظر كذلك في قصائد ابن القيسراني الحربية ظاهرة تذكّر بقصائد سلفه أبي الطيب، من حيث تناول الشاعرين لهذا النوع من الشعر: تلك هي أن ابن القيسراني، شأنه في ذلك شأن المتنبي، غالباً ما يسقط المقدمة الغزلية التقليدية من قصائده الحربية، ويبدأها بدايات حاسمة موحية بطبيعة

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٥٣.
٢ – انظر العمدة لابن رشيق ط القاهرة ١٩٣٤ ج١ ص ٢٢٢.
٣ – الخريدة ج١ ص ١١٣.
٤ – ديوان المتنبي ج٢ ص ٢٠٩.
٥ – انظر مثلا ديوان المتنبي ج٢ ص ٣١، ٣٢.

الموضوع ، كما يمكن أن يرى من المجموعة التالية من مطالع قصائده :

حذار منّا وأنى ينفـع الحذر وهي الصوارم لا تبقي ولا تذر

* * *

الحق مبتهج والسيف مبتسم ومال أعداء نور الدين مقتسم

* * *

هو السيف لا يغنيـك إلا جلاده وهل طوّق الأملاك إلا نجـاده

* * *

هذي العزائم لا ما تدعي القضب وذي المكارم لا ما قالت الكتب

* * *

تفي بضمانها البيض الحـداد وتقضي دينها السمر الصعـاد

* * *

دعا ما ادّعى من غرّهُ النهي والأمر فما المُلْـك إلا ما حباك القهر

وعلى غير ذلك قصائد ابن القيسراني المدحية ، أو تلك التي تستوعب غير ما موضوع واحد ، إذ أنها في هذه الحالة تبتدىء بمقدمات غزليّة ، قد تكون طويلة جداً ، ثم يجري التخلص من الغزل إلى الموضوع الرئيسي ، بطريقة حاذقة مدروسة ، فيما اصطلح على تسميته بـ « حسن التخلّص » على طريقة المتنبي .

وقد استرعى نظر كاتب هذه السطور في هذا الصدد ، تشابه دقيق ما بين نهج المتنبي ونهج ابن القيسراني ، في القصيدة التي لا تعالج واقعة واحدة ، بل مجموعة من وقائع الممدوح ، بعد مرور فترة عليها ، إذ ترخّص كلا الشاعرين هنا في وضع مقدمة غزليّة للقصيدة ، تخلصا منها على نحو مدروس إلى موضوعات القصيدة الرئيسية. فعندما وصف ابن القيسراني مجموعة من وقائع نور الدين. في قصيدة نظمها عام ٥٤٥ هـ، ابتدأ القصيدة بمقدمة غزليّة أولها :

أما وخيال زار ممّـن أحبّـه لقد هاج من ذكراه ما لا أغبّه

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٤٦ .

وبعد بضعة أبيات في الغزل والحنين ، انتقل إلى مدح نور الدين هذا الانتقال المدروس :

يشيم ثغور المزن تهمي كأنها سنا بشر نور الدين تنهلّ سحبه[1]

والطريقة التي عالج بها ابن القيسراني مادة قصيدته هذه ، تذكر بطريقة المتنبي في معالجة لاميته المشهورة في مدح سيف الدولة ، وتعداد مجموعة من وقائعه ، وهي القصيدة التي أولها :

ليالي بعد الظاعنين شُكول طوال وليل العاشقين طويل[2]

ويلحظ القارىء لهاتين القصيدتين بشيء من التمعن ، نوعاً من الارتباط والتواؤم ، ما بين الحالة النفسية لكل من الشاعرين ، كما تعبّر عنها المقدمة ضمناً في كل من القصيدتين ، وبين المادة الرئيسية . فالمقدمة في كل منهما تمثل خطّاً من ذكريات الشاعر المتتابعة ، وصور حنين مسترجعة ، الواحدة تلو الأخرى ، في حال من الاستذكار واستعادة الماضي ، في هدأة نفسية موقوتة ، بينما تمثل المادة الرئيسية في كل من القصيدتين ، ذكريات وقائع ماضية متتابعة للممدوح . تُستعاد في الذاكرة مع الاستعادة الوجدانية لأحوال الشاعر الماضية .

وثمة وجه آخر من أوجه الشبه بين فني الشاعرين ، يستحق أن يوقف عنده . فقد قيل عن المتنبي إنه تفرّد باستعمال ألفاظ الغزل والنسيب في أوصاف الحرب . يقول الثعالبي في ذلك : «وهو أيضاً مما لم يسبق إليه ، وتفرّد به ، وأظهر الحذق بحسن النقل ، وأعرب عن جودة التصرّف والتلعّب بالكلام[3]». ثم يورد الثعالبي مجموعة من الشواهد على ذلك في يتيمته .

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٨٨ .

٢ – ديوان المتنبي ج٢ ص ١٥٨ .

٣ – يتيمة الدهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط القاهرة ١٩٥٦ ج١ ص ٢٠٩ .

واستعمال الفاظ الغزل في أوصاف الحرب ، خصيصة من خصائص شعر ابن القيسراني ، ولعلّها خصيصة لم تأت بها الصدفة ، بل هي تأثر لِخُطى شاعر القرن الرابع الكبير الذي كان سبّاقاً إلى ذلك ، كما توحي بهذا عبارة أبي منصور الثعالبي السابقة .

وهذه بعض شواهد على ما ورد في شعر ابن القيسراني في هذا المجال .

يتغنى ابن القيسراني بامتلاك نور الدين لرحبة مالك ، فيقدّم البلد الممتلك بهذه الصورة الغزلة :

وملكت رحبة مالك فتبرّجتْ منها لعينك كاعب معطار
جاءتك في حلل الربيع وحليها قبل الربيع شقائـق وبهـار[1]

أما دمشق ، المدينة التي حاصرها نور الدين أكثر من مرّة إلى أن ضمها إلى أملاكه عام ٥٤٩ هـ ، فهي عند الشاعر غادة جميلة ، وذلك إذ يقول فيها :

جلاها لك الاقبال حوريّة السنا عليها من الفردوس أردية خضر
خلوب أكنّتْ من هواك محبة نمت فانتمت جهراً وسرّ الهوى جهر

* * *

فإن صافحت يمناك من بعد هجرها فاحلى التلاقي مـا تقدمـه هجـر
وهل هي إلا كالحصان تمنعت دلالاً وإن عز الحيا وغلا المهر[2]

وأما الحرب العوان ، فإنها تزفّ إلى نور الدين كالعروس :

لله عزمك أي سيف وغى طبعت مضاربه عـلى القهر
ما زفّت الحرب العوان به إلا انجلت عـن معقـل بكـر[3]

والصورة المقابلة ، أي ربط الجمال بالحرب وأدواتها ومصطلحاتها ،

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٧٥ .
٢ – المصدر نفسه ص ١٨٦ .
٣ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٤٦ .

عليها غير ما شاهد من شعر القيسراني . فعيون الفاتنات الفرنجيّات وقدودهن تقرن بآلات الحرب كما يلي :

بعيون كالمرهفات المواضي وقدود مثل القنا الهزّاز

ومغامرات الشيخ الطروب مع الفرنجيات ، إنما هي غزو :

من معيني على بنات بني الأصفر غزوا فانني اليوم غاز[1]

وثمة أمثلة كثيرة أخرى من هذا النوع في « ثغريات » الشاعر المضمّنة في ديوانه[2] .

* * *

ومن الأمور التي تسترعي النظر في ميدان التشابه والاحتذاء ما بين شعر ابن القيسراني وشعر المتنبي ، انتهاج الشاعر المتأخر ذلك النهج « التوفيقي » الذي عرف به أبو الطيب المتنبي من قبله . والذي نعنيه بالنهج التوفيقي في الشعر ، أن يحتفظ الشاعر بخصائص الشعر العربي القديم العامة في شعره ، دون أن يخلي هذا الشعر من معطيات عصره وخصائصه الأدبية ، بحيث يكون فيه من مظاهر التجديد ما يتساوق مع مقاييس العصر . وليس من شك في أن الجمع ما بين الأمرين ، يحتاج إلى ثقافة لغوية وأدبية واسعة من ناحية ، وإلى تفاعل مع التيارات الحديثة من ناحية أخرى .

فنحن مثلاً ، لا نشعر بأننا نخرج كثيراً عن إطار القصيدة العربية القديمة حين نقرأ القصيدة التالية لابن القيسراني في مدح نور الدين :

أبدى السلوّ خديعة للائم وحنا الضلوع على فؤاد هائم

ورأى الرقيب يحلّ ترجمة الهوى فاستقبل الواشي بثغر باسم

---

١ – مخطوطة الديوان ص ٧٨ .

٢ – انظر مخطوطة الديوان ص ٦٢ ، ص ٨٠ .

ومضى يناضل دونه كتمانه ما الحب إلا للحبيب الكاتم
من فضّ ختم لسانه عن سرّه ختمت أناملـه ثنيّـة نـادم

* * *

ومهفهف لعب الصّبـا بقوامه لعب الندامى بالقضيب الناعم
حرم الوصال وأرهفت أجفانه فأتاك ينظر صارماً من صارم
ولكم جرى طرفي يعاتب طرفه لا يسمع الساجي حديث الساجم
إني لارحم ناظريه من الضّنا لو أنّ مرحوما يرق لراحم
لله موقفنا وقد ضرب الدجى سرا علينا من جفون النائم

* * *

نلحي الوشاة وان بين جفوننا لمدامعاً تسعى لهـا بتمـائم
يا أيها المُغْرىٰ بأخبار الهـوى لا تخدعنّ عـن الخبير العـالم
اسأل ، فديتك ، بالصبابة لمّتي واسأل بنور الدين صدر الصارم
ومعطفـات تـرتمي بأجنة ومثقفات تهتدي بلهـاذم
ومسهّمات لست تـدري في الوغى بقوائمٍ يدركن أم بقـوادم
كل ابن سابقـة إذا ابتدر المـدى فلغير غرّتـه يمين الـلاطـم
يرمي بفارسـه أمـام طريده حتى يُرى المهزوم خلف الهازم
ينمى إلى ملك إذا قسم الندى والبأس ، كان المكتنى بالقاسم
متسربل بالحزم سـاعة تلتقي حلق البطان عـلى جواد الحازم
ما بين منقطع الركاب وسيفه إلا اتصال يمينـه بالقـائم
سام الشآم ويا لها مـن صفقة لولاه ما أعيت على يد سائم
ولشمّرت عنها الثغور وأصبحت فيها العواصم وهي غير عواصم
تلك التي جمحت على من راضها ودعوت ، فانقادت بغير شكائم
وإذا سعادتك احتبتْ في دولـة قام الزمان لهـا مقام الخادم
يا ابن الملوك،وحسب أنصار الهدى ما عند رأيك من ظبـاً وعـزائم
قوم إذا انتضت السـيوف اكفهم قلت الصواعق في متون غمائم
من كل منصور السنـان بعُجْمَةٍ وهل الأسود الغُلْب غير أعاجم

أو مفصح يقري الصوارم في الوغى أسخى هناك بنفسه من حاتم
حصّنْ بلادك هيبة لا رهبةً فالدرع من عدد الشجاع الحاذم
وارم الأعادي بالعوادي إنها كفلت بفلّ قديمهم والقادم[1]

أما الأبيات التالية ، ففيها أثر واضح من اتجاهات العصر الأدبية ، والالتزام بمقاييسه :

قلت ، تقول الله لا خائفاً مع حِكَم القرآن حُكْمَ القِرانْ
لا راقب النجم ولا سائلا ما فعل السعدان والنيّران

* * *

رُعْتَ نواميس نواقيسها بجلبة الآذان وقت الأذان
تمحو تصاوير الدمى عن يدٍ تبني المحاريب خلال المجان
هذا ، وكم أنشأت من منبرٍ فارسه فارس حسن البيان
من نال بالاخلاص ما نلته كان من الله مكين المكان
يا شائماً بالشام صوب الحيا ودانياً من كل قاصٍ ودان
هذي سجوف الملك مرفوعة من ملك أخباره كالعيان
أوضح سبل العدل مفتنّة فللبرايا بالدعاء افتتان
ألغى حقوقاً كلها باطل إلى مآلٍ حطّ مال الضمان
عطفاً ورفقاً بالرعايا وإنْ أصبح تأديب ملوك الزمان
كم بين من نام على نشوة وشاهد في صحوة من حصان
في كل يوم ينثني سيفه ببلدةٍ بكرٍ وأخرى عوان[2]

والقصيدة ، كما هو واضح ، حافلة بالمحسّنات اللفظيّة وأصناف البديع التي كانت ترضي أذواق العصر ، وتنسجم مع مقاييسه .

* * *

وثمة خصيصة أخرى من خصائص شعر ابن القيسراني تذكر بشعر أبي

---

١ – الخريدة ج١ ص ١١٢ – ١١٣ .
٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٥٠ .

الطيب المتنبي : تلك هي تعريج الشاعر في خواتيم عددٍ من قصائده على شعره ، ينوّه به ، ويعلي من شأنه . فها هو ينوّه بشعره ، في ختام قصيدة طويلة له في نور الدين فيقول :

ومن يدّعي في قتلك الشرك شركة ... إذا لم يكن عند القوافي لـه ذكر
هي[1] القانتات الحافظات فروجها ... فشاهدها عدل ورائقهـا سحر
ولو لم يكـن في فضلهـا وكمالها ... سوى انها من بعد عمر الفتى عمر[2]

ويقول لنور الدين كذلك ، في نهاية قصيدة طويلة له فيه نقلها العماد الأصفهاني :

فتهنّ أوصاف العلا منظومة ... فالدر أنفَسُهُ بكفّ النـاظم
جاءتك في حلل النباهة حاسراً ... تختال بين فضائل ومكارم
عربيّـة انسابها لو أنهـا ... لحقت أميّة لانتمت في دارم[3]

* * *

ولا بدّ أن نتساءل : ما الذي دفع ابن القيسراني إلى هذا التأثر القوي بالأقدمين ، وبشعر أبي تمام وأبي الطيب المتنبي على وجه الخصوص ؟

ثمة غير ما دافع واحد . ولعل أقوى الدوافع ، الروح الاتباعية التي سادت أدب العصر : شعره ونثره . وكل من يدرس هذا الأدب ، لا بد أن يقف على نزعة اتباع واحتذاء فيه تكاد تبلغ حد العبوديّة . فالانتاج الأدبي الموروث ، اعتبر مثلاً أعلى ، ينظر إليه باعتباره الغاية التي لا تطاول ، وراجت مع هذه التبعيّة فكرة مفادها أن الأقدمين قد ذهبوا بالمعاني جميعها وأنه لم يبق للمحدثين إلا أن يتفننوا في ابراز المعاني التي سبقوا إليها في أشكال جديدة طريفة .

---

١ – هي : القوافي أي قصائده .
٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٨٨ .
٣ – الخريدة ج١ ص ١١٤ .

ولعلّ اختلاط القوميات في بلاد الشام خلال هذه المرحلة ، على نحو لم تشهد له البلاد مثيلاً من قبل ، قد جعل من العربيّة السليمة في هذه المنطقة لغة ثقافة تكتسب بالتعلم[1] ، عن طريق دراسة الكتب الأدبية ، بما تحفل به من شعر ونثر . وغير غريب والحالة هذه ، أن ينظر إلى ما احتوته بطون هذه الكتب باعتباره المثل الأعلى الذي ينبغي أن يحتذى في كل نص أدبي جديد . وربما كان التهديد للحضارة العربية الإسلامية ، المتمثل في الوجود الصليبي الاستيطاني ، بما انبنى على هذا الوجود من طمس فعليّ لجزء من التراث العربي المدوّن ، عن طريق احراق الكتب وتدمير المكتبات في الأراضي المحتلة — ربما كان ذلك حافزاً قوياً إلى الالتفات إلى هذا التراث والحرص الزائد عليه ، باعتبار ذلك رد فعل للتهديد الأجنبي لتراث الأمة .

وأياً ما كان السبب ، فإن من الواضح لمتعقب شعر الفترة ، أن النزعة الاتباعية سمة واضحة من سماته ، بل لعلها أخصّ سماته . كما يمكن أن نتبين على سبيل المثال ، من أشهر مجموعةٍ شعرية وصلتْ إلينا من ذلك العصر ، وهي « خريدة القصر ، وجريدة العصر » للعماد الأصفهاني الكاتب .

وابن القيسراني كان شاعراً مثقفاً قرأ الكثير من الشعر وتأثر به.والمعروف أنه درس على توفيق بن محمد ، وأبي عبد الله ابن الخياط[2] . وكلاهما شاعر . وقد غلبت صناعة الشعر على ابن الخياط ، حتى كان لقب « الشاعر » يلحق باسمه[3] . ومن الأمور ذات الدلالة ، بالنسبة إلى ما نحن بصدده ، ان ابن

---

١ — انظر حول المشكلة اللغوية المعالجة الممتازة التي أوردها الدكتور عبد العزيز الأهواني في كتابه : « ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر» ط القاهرة ١٩٦٢ ص ٦–٧ ص ١٤ وما بعدها وص ٣٥ وما بعدها .

٢ — انظر «أخبار العلماء بأخبار الحكماء» للقفطي، مطبعة السعادة ، القاهرة ، تصحيح أمين الخانجي ط ١٣٢٦ هـ ، ص ٥٧٤ . مرآة الزمان ج٨ ص ٢١٣ . معجم الأدباء ج ١٩ ص ٦٤ . وفيات الأعيان ج٤ ص ٨٢ . الدارس ج٢ ص ٣٨٨ .

٣ — انظر فيما يتعلق بابن الخياط : وفيات الأعيان ، ج١ ص ١٢٧ . شذرات الذهب ج٤ ص ٥٤ . مقدمة ديوان ابن الخياط ، تحقيق خليل مردم بك ج٥ ص ٣٩ .

الخياط هذا قد أدب نفسه بحفظ أشعار المتقدمين وأخبارهم[1] ، وأنه كان يأخذ كثيراً عن ابي الطيب المتنبي ، حتى ان ضياء الدين بن الأثير يقول : « ثم اني وقفتهم (أهل دمشق) على مواضع كثيرة من شعر ابن الخياط قد أخذها من شعر المتنبي »[2] .

فاذا كان ابن الخياط يؤدب نفسه بحفظ أشعار المتقدمين وأخبارهم ، وإذا كان قد أخذ عن المتنبي في مواضع كثيرة من شعره ، فإن من المعقول جداً أن ينحو تلميذه ابن القيسراني نحوه ، فيتأثر بشعر الأقدمين ، وبشعر المتنبي بصورة خاصة .

وتأثر ابن القيسراني بشعر أبي تمام والمتنبي على وجه الخصوص يمكن ردّه إلى مجموعة من الأسباب ، بالاضافة إلى الأسباب الموردة آنفاً في تفسير النزعة الاتباعيّة في شعره .

فشاعرا القرنين الثالث والرابع على التوالي ، كانا زعيمي الشعراء في عصرهما وقد رزق شعرهما من الذيوع ، ما لم يرزقه شعر غيرهما ، وسلطت الأضواء على شعرهما ابان حياتهما وبعد موتهما . وما من شك أن شعرهما كان متداولاً على نطاق واسع زمن ابن القيسراني .

ثم إن هذين الشاعرين ، قد برّزا في الشعر الحماسي ، وفي الشعر الجهادي منه بصورة خاصة ، وهو الشعر الذي كان موضوعه حروب المسلمين مع أعدائهم من الروم البزنطيين . وهذا الشكل من الشعر الحماسيّ ، يختلف عن الشكل الذي كان شائعاً عند العرب قديماً ، والذي كان موضوعه المنازعات الداخلية ما بين القبائل العربيّة ، ثم ما بين الفئات المتناحرة داخل دولة الخلافـة .

وليس من الصعب على الإنسان أن يتبيّن الصلة الواضحة ، ما بين شعر

---

١ – انظر تهذيب ابن عساكر ج٢ ص ٦٧ . البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٩٤ .
٢ – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ط بولاق ١٢٨٢ هـ ص ٤٦٩ .

يقال في قتال المسلمين مع البزنطيين ، وشعر يقال في قتال المسلمين مع الصليبيين، حيث العامل الديني في القتال بارز في كلّ .

وينبغي أن نتذكر كذلك ، أن عنصر الفخامة والضخامة الذي تميّز به شعر أبي تمام وأبي الطيب المتنبي ، وبخاصة شعرهما في الحماسة والحرب ، كان عنصراً يستهوي كل شاعر لاحق ، يبحث عن الاطار اللفظي المناسب لمادة الحماسة والحرب .

والمتنبي كان أقرب عهداً من أبي تمام بالقيسراني ، ولا بدّ أن أثره في شعراء الشام كان قوياً بصورة خاصة لأن شهرته الأدبية ، ارتبطت بالفترة التي قضاها في بلاد الشام ، أكثر من ارتباطها بأي بلد آخر حلّ فيه .

وعلاقة المتنبي بمدينة حلب بالذات ، حين كان شاعر سيف الدولة الحمداني الأول ، لا بدّ أنها تركت أطيافاً خاصة في ذهن ابن القيسراني ، الذي استوطن المدينة نفسها في ظل نور الدين ، وفيها كتب أقوى قصائده الجهادية ..

ولا نوغل في الخيال ، إذا ما افترضنا أن صورة من علاقة أبي الطيب المتنبي بسيف الدولة الحمداني ، كانت ماثلة في ذهن ابن القيسراني بالنسبة إلى علاقته بنور الدين . وإذا كان المتنبي قد قضى مع سيف الدولة تسع سنوات (٣٣٧ – ٣٤٦ هـ) ، كانت أحفل سنوات حياته ، فقد قضى ابن القيسراني مع نور الدين سبع سنوات (٥٤١ – ٥٤٨ هـ) ، كانت من أحفل سنيّ حياته الأدبية .

وإذا كان سيف الدولة ، قد اعتبر عند معاصريه واللاّحقين على السواء ، الذائد الأول عن دولة الإسلام في وجه القوى النصرانية المهددة لها ، فقد اعتبر نور الدين كذلك الذائد الأول في عصره عن دولة الإسلام – في وجه أوروبا النصرانية الغازية ، حين كانت دولة الخلافة العباسية منقسمة متخاذلة ،

مثلما كانت كذلك زمن سيف الدولة الحمداني .

والمتنبي . كما يفصح بذلك شعره ، حاول خلال السنوات التسع التي قضاها في كنف سيف الدولة ، أن يكون الناطق باسمه في حالتي الحرب والسلم ، بل والمتحدّث عن تقلّبات الزمان به ، وكذلك فعل ابن القيسراني ، الذي مجّد انتصارات نور الدين ، واعتذر عن هزائمه ، وأشاد بمعاملته لحكام المسلمين الآخرين ، وهنأه وعزّاه ، في مناسبات التهنئة والعزاء .

وظروف الحرب الشاملة التي عاش أهل الشام في ظلّها زمن نور الدين ، لا تختلف عن ظروف الحرب الشاملة ، التي اكتنفت حياة أهل الشام زمن سيف الدولة إلا في كون الحروب الصليبية أوسع نطاقاً وأشد خطراً .

ثم إن تراث المتنبي من الشعر الحماسي الذي يصور القتال بين أمتين ، كان أغزر من أي تراث آخر في شعرنا العربي . ولقد كان تراثاً شائعاً حيّاً لا يبعد زمنياً مدة طويلة عن عصر ابن القيسراني . وكل ذلك من شأنه أن يدفع ابن القيسراني لأن يحتذي شعر المتنبي فيما نظم من شعر الحرب والحماسة.

ولكنّ ابن القيسراني عجز عن أن يكون متنبّياً ثانياً حتى وهو يحاول أن يكونه ، وذلك لأسباب ...

فابن القيسراني الذي أحبّ الحياة اللاهية الناعمة في مراحل حياته المختلفة وحتى مرحلة الشيخوخة . لم تكن له شدّة نفس المتنبي وعنفوانه ، ومن ثمّ لم يكن قادراً على أن يندمج اندماجاً صادقاً مع العنف ومناظره ، وبالتالي على أن يصور العنف تصوير مستريح إليه مندمج فيه . والتناسب ما بين أسلوب الأديب وشخصيته أمر تعارف عليه كتاب الشرق والغرب على السواء . وقد قال به في القرن الرابع الهجري عليّ بن عبد العزيز الجرجاني صاحب الوساطة[1] كما عبّر عنه الناقد الفرنسي « Buffon بفو » تعبيراً بليغاً حين قال : « الأسلوب

---

١ – انظر كتاب « الوساطة بين المتنبي وخصومه ط صيدا ١٩١٣ ص ٢١ » .

هو الرجل نفسه »[1] .

ومعنى ذلك أن ابن القيسراني لم يكن منسجماً مع ذاته وهو يصف الحرب ومعاركها ، بل كان يستقي من صور غيره ، أو يعمد إلى مبالغات وقعقعات لفظيّة ، لا تتصل بنفسه اتصالاً حقيقياً ...

وابن القيسراني لم يكن من رجال الحرب ، في حين أن المتنبي كان كثيراً ما يصحب سيف الدولة في غزواته ، فيستوحي صوره وأوصافه من مشاهد حقيقية ، تؤثّر في نفسه فرداً ، وعضواً في جماعة لها مشاعرها وأحاسيسها الجماعيّة الخاصّة بها ...

والأمير الذي كان يرعى المتنبي في حلب ، غير الأمير الذي رعى ابن القيسراني في المدينة نفسها ، من حيث الالمام بالشعر والأدب ، والانفعال بهما ... فالمعروف عن سيف الدولة ، الأمير العربي ، أنه كان ذوّاقة للشعر محباً له ، يتأثر به ويجزل المكافأة عليه ، بل كان كثيراً ما يحاور شاعره الكبير وينقده فيما يقول من شعر .

أما نور الدين ، فهو يمثّل الحاكم التركي التقيّ المستنير ، الذي نال حظاً من علوم عصره ومعارفه ، وشجّع على اشاعتها في دولته ، مع ميل خاص إلى العلوم الدينية ، ينبثق عن تقوى متأصل عميق يذكر بالخليفة الأموي الصالح عمر بن عبد العزيز . وهنا لا نصدر عن مجرّد اجتهاد ، إذ نجد من النصوص التي بين أيدينا ما يثبت هذا الذي ذهبنا إليه ... وحسبنا أن يكون صاحب النص أبا شامة الموثوق ، القريب العهد من الفترة التي نعالج أدبها وأحداثها . يقول أبو شامة عن نور الدين : « ولما اشتهر به من قلة ابتهاجه بالمدح ، لما علم من تزيّد الشعراء ، وهي طريقة عمر بن عبد العزيز زاهد الخلفاء ، قال يحيى بن محمد الوهراني في مقامة له ، وقد سئل في بغداد عن نور الدين : « هو سهم للدولة سديد،وركن للخلافة شديد ، وأمير زاهد

١ – Encyclopaedia Britannica, 11 th. ed., under « style »

وملك مجاهد ، تساعده الافلاك . وتقصده الجيوش والأملاك ، غير أنه عرف بالمرعى الوبيل لابن السبيل ، وبالمحل الجديب للشاعر الأديب ، فما يرزى ولا يعزّى ، ولا لشاعر عنده من نعمة تجزى »[1] . ويضيف أبو شامة : وإياه عنى أسامة بن منقذ بقوله :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا ... له فكل على الخيرات منكمش
أيامه مثل شهر الصوم : طاهرة ... من المعاصي وفيها الجوع والعطش

غير أن أبا شامة لا يتقبّل هذا كله ، فيقول في الردّ عليه : قلت : رحمه الله ، ما كان يبذل أموال المسلمين إلا في الجهاد . وما يعود نفعه على العباد . ثم يفنّد أبو شامة بيتي أسامة السابقين بايراده أبياتاً للشاعر نفسه يشيد فيها بكرم نور الدين . ويعقب على ذلك قائلاً : وقد تقدّم من شعر ابن منير وابن القيسراني والعماد الكاتب وغيرهم من مدح نور الدين بالكرم والجود . ما قليل منه يرد قول الوهراني وابن منقذ . على أن ابن منقذ قد رددنا شعره لشعره كما تراه ، وإنما الشعراء وأكثر الناس ، كما قال الله تعالى في وصف قوم : « فإن أُعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » ويختم أبو شامة بقوله : « وما كلّ وقت ينفق العطاء ، ويفعل الله ما يشاء »[2] .

ولقد صدق أبو شامة ، وأفرط الوهراني وابن منقذ . ومع ذلك لا يملك المرء إلا أن يقول إن رعاية سيف الدولة للأدب وأصحابه ، وكذلك اتصاله بالشعر والأدب ، لم يتوافرا بالقدر نفسه لنور الدين ، الحاكم التركي التقيّ الورع . وبعد ، فقد حاول ابن القيسراني أن يقلّد أبا الطيب المتنبي في الصورة العامة لشعره الجهادي ، فأشاع في هذا الشعر أصداء شعر المتنبي بكل ما تميّز به ذلك الشعر من ضخامة وإثارة ومبالغات ، وحاول ابن القيسراني كذلك ، أن يحتذي صور المتنبي الشعرية الخاصة به ، فنقل هذه الصور ،

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٥٨٤ ، ٥٨٥ .
٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٥٨٥ .

أو تحايل عليها ، فداورها وولّد منها صوراً أخرى على طريقة شعراء العصر .

بيد أنه بسبب من المزايا التي توافرت في المتنبي دون ابن القيسراني ، وبسبب من أصالة في شاعر الحمدانيين ، لم يرق إليها احتذاء ابن القيسراني ، نجح المتنبي في نقل صور القتال ما بين المسلمين والروم ، بأكثر مما نجح ابن القيسراني ، في نقل صورة القتال ما بين المسلمين والصليبيين .

وإذ نقول ذلك،نتجنب اتهام ابن القيسراني بافتقار إلى الشعر الصادق ، أو بعجز مبين في أداته الشعرية ... لا نتهمه في شعوره ، لأنه عانى هو شخصياً من الغزو الصليبي ، إذ طرد من بلده في أعقاب مأساة دامية ، وارتبطت حياته لمدة طويلة بمراكز المقاومة الرئيسية للصليبيين في الشام وبأعظم من قاوم الغزو الصليبي من رجال الإسلام في تلك الفترة .

ولا نتهمه في شعوره كذلك ، بسبب من هذا القدر الكبير من شعره الذي نعتدّه شعر مقاومة في مفهومنا الحاضر ، وهو شعر يظهره واحدا من جماعة المسلمين . يتخذ من فنّه وسيلة لمقاومة عدوهم والتعبير عن مواقفهم وأحاسيسهم ..

ولا نتهم ابن القيسراني بعجز مبين في أداته الشعرية ، إذا ما نظرنا إلى شعره — وحُقّ للشاعر ذلك — من خلال نظر معاصريه ، بل ومن لحق كذلك بمعاصريه ، لبضعة قرون ، كما يتضح من الأقوال التالية فيه :

قال السمعاني عنه : « أشعر أهل الشام »[1] .

وقال عنه ابن القلانسي : كان أديباً شاعراً مترسلاً فاضلاً بليغ النظم مليح المعاني[2] . وقال العماد الأصفهاني فيه وفي ابن منير الطرابلسي :

---

١ — كتاب الأنساب ص ٤٦٨ .

٢ — ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٢ .

« فكأنهما جرير العصر وفرزدقه ، وهما مطلع النظم ومشرقه[1] » وقال أبو شامة في معرض حديثه عن نور الدين : « في دولته شاعرا زمانه : أبو عبدالله محمد بن نصر بن صغير ، وأبو الحسن أحمد بن منير ، ولهما فيه أشعار فائقة »[2] . وقال ياقوت فيه : « كان شاعراً مجيداً ، وأديباً متفنناً »[3] واستعمل ابن خلّكان عبارة مشابهة حين قال : « وكان من الشعراء المجيدين ، والأدباء المتفننين »[4] . وقال النعيمي : « حامل لواء الشعر في عصره »[5] .

وقد يغلب على هذه الأحكام الطابع التأثري الذاتيّ ، وان السابق من أصحاب هذه الأحكام قد أثّر في اللاحق ، ولكن هذا التمييز الذي اختصّ به القيسراني على معاصريه من الشعراء ، يبقى شاهداً على أن نهجه الشعري كان يلقى قبولاً لدى معاصريه ومن تلاهم ، وأنه كان متسقاً مع أذواقهم الأدبية .

* * *

ما الذي نأخذه إذن على ابن القيسراني في شعره الجهادي ؟ أهو اتخاذه السابقين من الشعراء ، وشاعراً معيناً منهم على وجه الخصوص ، قدوة له فيما نظم من هذا الشعر ؟ وهل كل تقليد فني ، لا بدّ أن يكون موضع إدانة ، حتى ولو كان الأنموذج المحتذى معترفاً له بالتفوق ؟

قد يكون التقليد الفني مجرّد احتذاء عبودي ، يتمخّض عن صورة شوهاء للأنموذج المُحتذى . وقد يكون احتذاء « موازاة » يحاول معه الفنان أن يضع نفسه في صف واحد مع من يحتذي ، وربما نجح في ذلك ، كما

---

١ – الخريدة ج١ ص ٧٩ .
٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٤٤ .
٣ – معجم الأدباء ج ١٩ ص ٦٤ .
٤ – وفيات الأعيان ج٤ ص ٨٢ .
٥ – الدارس ج٢ ص ٣٨٨ .

فعل بشار إذ احتذى شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ، وكما فعل شوقي حين احتذى فحول شعراء العباسيين .

والحق أن أجزاء في شعر ابن القيسراني ، قد ترقى أحياناً إلى مستوى الموازاة ، حتى لا يكاد القارىء يفرّق بينها وبين شعر أبي تمام أو المتنبي . ولكن ، يبقى بعد ذلك مأخذ لا ينجو منه التقليد الفني ، مهما بلغ من درجات الحذق والاتقان ...

ذلك هو أمر الاستمداد من مشاعر الآخرين وتجاربهم ومواقفهم ، بدلاً من الاستمداد من الذات بمشاعرها وتجاربها وموقفها .. فكأن ثمة شكلاً من أشكال الهيمنة الفكرية والشعورية ، يفرض نفسه على الشاعر اللاحق ، فيقيده ويحدّ من انطلاقه .. وإذ ذاك ، يتلمس لمادته الشعرية ، نموذجاً سابقاً ، بسبب علاقة ما بين موضوع هذه المادة ، وموضوع الأنموذج السابق ، ثم يقيس نجاحه أو فشله بمدى قربه أو بعده عن الأنموذج المحتذى ...

ومعنى ذلك ، أن يتحوّل نظم الشعر إلى استقراء واعٍ لما أنتجه الآخرون في مجال من المجالات ، بدلاً من أن يستبطن الشاعر ذاته ، و يستمدّ من تجاربه ، ثم يعبّر تعبيراً مستقلاً صادقاً عن موقفه هو عن الأحداث أو الموضوعات التي يودّ النظم فيها ، وليس عن موقف شاعر سابق له ، له مواقفه الخاصة من أحداث عصره، وينتمي إلى جماعة أخرى من الناس ، في إطار الزمان والمكان اللذين عاش فيهما .

ولا ريب أن ازدواجية من نوع ما سوف تنشأ ، إذا ما فصل الشاعر بين ردّ الفعل التلقائي عنده للأحداث التي تمرّ به ، وبين الوسيلة الفنية التي يستخدمها لتصوير تلك الأحداث وأصدائها في نفسه ونفوس الجماعة التي يرتبط بها .. ذلك أن التماس أداة التعبير من الخارج يجرّ إلى استعارة الألفاظ والصور التي تتّسق مع الحدث ، من ألفاظ الآخرين وصورهم ، ومن ثمّ ينفقد عنصر الصدق الفنيّ في العمل الأدبي ، لأن التطابق التام في الأحاسيس

والتصورات عند الناس أمر مستحيل ، ومن ثمّ فإن لكل واحد من الناس طريقته الخاصة به في التعبير عن هذه الأحاسيس والتصورات ، إذا أراد أن يكون هذا التعبير صادقاً أصيلاً .

وهنا ندرك الخطأ الذي وقع فيه ابن القيسراني . فهو حين أراد أن يعبّر بشعره عن وقائع الحروب الصليبية ، تراءى له أنه لا يفيها حقها من الوصف والتصوير ، إلا إذا استعار أدوات الفحول السابقين له في التعبير عن وقائع مشابهة . فكان أن تراءت أحداث العصر له صوراً من الأحداث الماضية . لا يفرقها عنها إلا الأسماء الجديدة للناس والأماكن .. ومن ثم بهتت سمة « الواقعية » فيها ، وأصبحت نسخاً منقولة عن صور سابقة .

مقاييس العصر الأدبية :

حاولنا أن نتلمس في الصفحات الماضية ، أثر التراث الشعري الموروث على شعر ابن القيسراني . ولا بدّ لنا أن نتلمّس عوامل أخرى ، تركت أثرها كذلك في الخصائص الفنيّة لهذا الشعر .

ومن أهمّ هذه العوامل ، المقاييس الأدبية المتعارف عليها في العصر ، وقلّما نجد أديباً لا يتأثر بمقاييس عصره ، بصورة أو بأخرى ، وعلى تفاوت في هذا التأثر . والمقاييس الأدبية في عصر من العصور تشبه من بعض الوجوه طراز الملابس الذي يشيع في فترة من الفترات . فيُغري بالاخذ به خشية الاتهام بالتخلّف عن العصر ... والذين لا يلتزمون بالمقاييس الأدبية المعاصرة ، يحتاجون إلى الكثير من الجرأة والقدرة والثقة بالنفس .

والمقاييس الأدبية في عصر ابن القيسراني . كان من أبرز مظاهرها الاتجاه إلى البديع ، أو الصناعة اللفظيّة .. ويكفي أن يطالع المرء ما خلّفه شعراء هذا العصر وكتّابه . حتى يدرك إلى أي حدّ تغلغلت الصناعة اللفظيّة في شعر العصر ونثره . ولعل المجموعة الشعرية الضخمة ، التي احتواها كتاب « الخريدة » لشعراء القرنين الخامس والسادس الهجريين . تقوم شاهداً على مدى احتفال شعراء هذه الفترة بالزخرف اللفظي ... بل ان الاحتفال بالبديع والصنعة اللفظية . قد تجاوز حدود الشعر والنثر الفني إلى لغة المؤلفات .

كما هو واضح في كتاب التاريخ الذي ألفه العماد الأصفهاني وأسماه « الفيح القسيّ في الفتح القدسي » ، حيث يلتزم المؤلف في مادته التاريخية السجع في جميع صفحات الكتاب ، فضلاً عن أصناف الصناعة اللفظيّة ، الأخرى ، التي أثقل بها عباراته .

ومن مظاهر الاهتمام بالبديع منذ القرن الخامس الهجري ، كثرة معالجة الكتاب والنقّاد له باعتباره فناً بلاغيّاً . ومن هؤلاء ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٤٦ هـ ، الذي اهتمّ بالبديع اهتماماً كبيراً ، حين حوّم فيما كتبه كثيراً حول الألفاظ والأصوات ، مما يتصل اتصالا مباشراً بهذا الفن . وقد بحث الكاتب في الأصوات وفلسفتها وخصائصها ، كما بحث الحروف وصفاتها الصوتيّة من حيث مخارجها وأصواتها المختلفة . وكذلك بحث في شروط الفصاحة في اللفظة المفردة ، ورأى أن الفصاحة صفة للفظ دون المعنى ، لأن الكلام أصوات ، قبل أن يكون مجرّد معان قائمة في الذهن . ومن هنا وجب تفصيل القول في الأصوات وأقسامها ، وصلة الفصاحة بتوافقها وتلاؤمها وشروط التلاؤم وخصائصه ، وما يتصل بها من أمور أخرى متعلقة باللفظ . وكل ذلك يشير إلى اهتمام ابن سنان الكبير بالألفاظ وأثرها على بلاغة القول[1]. وغير خاف ما للاهتمام باللفظة من أثر على فن البديع أو الصناعة اللفظية .

ومن كتّاب القرن الخامس الذين اهتموا بالبديع كذلك ، ابن رشيق القيرواني المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، صاحب كتاب « العمدة » وهو من أهم المراجع القديمة في نقد الشعر ودراسته . ويقرن ابن رشيق ما بين البديع والصنعة اللفظية ، ويرى أن الشعر المصنوع أكثر رونقاً من الشعر المطبوع ،

---

١ – انظر « سر الفصاحة » طبع الخانجي بمصر ١٩٣٢ ص ٦–١٤ ، وص ٣٤ وما بعدها وانظر كذلك « تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى العاشر الهجري » لمحمد زغلول سلام ، ط القاهرة ، دار المعارف ص ٢٥٤ – ٢٦٣ ، حيث عرض الدكتور سلام آراء ابن سنان الخفاجي عرضاً جيداً بشيء من تفصيل .

وأن للمحدثين الفضل في تجديد المعاني والألفاظ في البديع ، ويعتقد أنه لا ينبغي للشعر أن يكون خلواً من الصنعة[1] . والواقع أن كتاب العمدة في مجموعه ، يوحي للقارىء أن الشعر قد أصبح صناعة لها أدواتها وطرائقها المحددة الخاصة بها .

ويستمرّ الاهتمام بالبديع في القرن السادس ، وبخاصة في مصر والشام ، حيث اهتمّ علماء البلدين بالبديع وفنونه على أساس اهتمامهم بالخصائص الحسيّة والجمالية في فنون القول ، وتقديمها على الخصائص المعنوية وجوانب الإقناع الفعلي . ومن ثم ظهر البديع فناً في التعبير وطريقاً من طرق القول الجميل الذي يمتع الأذن ، ويعذب وقعه في النفوس ، بما يستدعي من معان وما يحدث من تقسيم وايقاع . واستخدم البديع كل ما يمكن استخدامه من خصائص اللفظ العربيّ وامكانياته الصوتيّة والمعنوية ، مفرداً ومنظوماً ومركباً ، وعلى رأس خصائص اللفظ الصوتية ، التجنيس[2] .

وشيئاً فشيئاً ، أصبح البديع غاية في حدّ ذاته ، وبالغ الأدباء فيه ، وفرّعوا له حتى أسرفوا في ذلك ، واختلطت في أبوابه محسّنات اللفظ والمعنى والوزن والموسيقى والنظم والتأليف ، بالموضوعات والسرقات المعنوية[3] .

وعندما نأتي إلى كتاب « البديع » لاسامة بن منقذ المتوفي سنة ٥٨٤ هـ ، نجد حشداً لضروب البديع بتفريعاته ، حتى إن المؤلف جمع خمسة وتسعين نوعاً منها ، صنّفها أبواباً ، واعتمد في تصنيفه على كتب من سبقوه إلى

---

١ – انظر كتاب العمدة ط ١ القاهرة ١٩٣٤ ج١ ص ٧٤ وما بعدها وص ١٠٣–١٠٧ وص ١٠٨–١١١ ، وانظر كذلك محمد زغلول سلام : تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري ص ١٢٨ وما بعدها ، حيث يعرض المؤلف آراء ابن رشيق النقدية في كتاب « العمدة » .

٢ – انظر تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري ص ٣١٣ .

٣ – انظر تاريخ النقد العربي من القرن الخامس الهجري إلى القرن العاشر الهجري ص ٣١٥ وما بعدها .

هذا الفن ، وعلى رأسها كتاب « البديع » لابن المعتز[1] .

وفي القرن السابع الهجري ، يؤلف عبد العظيم بن أبي الأصبع المصري المتوفّى سنة ٦٥٤ هـ ، كتاباً يبحث في البديع أسماه « تحرير التحبير » وقد تتبع المؤلف في كتابه هذا فنون البديع ، وزاد على كل ما كان يعرفه السابقون من أنواعه ، حتى بلغت عنده مئة وعشرين نوعاً[2] .

وقداستّرعت ظاهرة الاهتمام بالبديع في غرب العالم الإسلامي نظر ابن خلدون ، وهو يقارن بين اهتمام أهل المغرب بصناعة البديع واهتمام المشارقة (أهل منطقة فارس وما جاورها من بلدان) بأنواع أخرى من العلوم البلاغيّة حيث يقول في ذلك : « وبالجملة ، فالمشارقة على هذا الفن (علم البيان) أقوم من المغاربة ، وسببه — والله أعلم — أنه كمالي في العلوم اللسانيّة ، والصنائع الكماليّة توجد في العمران ، والمشرق أوفر عمراناً من المغرب . أو نقول لعناية العجم به ، وهم معظم أهل المشرق ، كما في تفسير « الزمخشري » وهو كله مبنيّ على هذا الفن . وإنما اختصّ أهل المغرب من أصنافه بعلم البديع خاصة ، وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية ، وفرّعوا له ألقاباً ، وعدّدوا أبواباً ، ونوّعوا أنواعاً ، وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب . وإنما حملهم على ذلك ، الولوع بتزيين الألفاظ ، وإن علم البديع سهل المأخذ . وصعبت عليهم مآخذ البلاغة والبيان لدقة أنظارهما وغموض معانيهما ، فتجافوا عنهما »[3] .

* * *

١ — انظر كتاب البديع لاسامة بن منقذ ، بتحقيق الدكتور أحمد بدوي وابراهيم الابياري وزارة الثقافة والارشاد القومي — القاهرة ١٩٦١ . وانظر كذلك عرض الدكتور سلام للكتاب في كتابه « تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري » ص ٣٢٠—٣٢٦ .

٢ — انظر كتاب « تحرير التحبير لابن أبي الأصبع » بتحقيق حفني شرف ، طبع المجلس الإسلامي الأعلى . وانظر كذلك عرض الدكتور سلام لهذا الكتاب في كتابه « تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى العاشر الهجري ص ٣٥١ — ٣٦٠ » .

٣ — مقدمة ابن خلدون ، المطبعة البهية ، القاهرة (لا تاريخ) ص ٤٠٧ .

ونحن لا نريد أن نصدر حكماً سلفياً على شعر ابن القيسراني من حيث ذيوع البديع فيه ، انطلاقاً من ذيوع البديع في شعر معاصريه ، واهتمام نقاد عصره بالكتابة عن هذا الفن . وذلك لأن النهج الذي انتهجناه ، كما سبق أن اسلفنا ، هو الاستقراء الداخلي للنصّ . ومن هذا الاستقراء الداخلي يستبين ولع ابن القيسراني بفن البديع بضروبه المختلفة ، وبالجناس والطباق بصورة خاصة ، حتى إنه ليتعذّر على المرء أن يعثر على قطعة واحدة من شعره تخلو من صورة من صور البديع .

ويحسّ الدارس لهذا الشعر كذلك ، أن الشاعر يركز تركيزاً يسترعي النظر على المفردة اللغوية من حيث معناها ورسمها وصوتها وايقاعها ، حتى لقد أصبحت مفردات اللغة سبيلاً عريضاً إلى أشكال من تداعي المعاني والرسوم والأصوات والايقاعات . وقد يكون هذا التداعي حرّاً طليقاً ، بحيث تستدعي الكلمة أنواعاً من الايحاءات التي لا تخطر لأول وهلة في الذهن .

وفي هذا أحياناً من الخطر ما فيه ، إذ تصبح الكلمة هي التي تولد الفكرة . بدلاً من أن تستدعي الفكرة الكلمة أو الكلمات المعبرة عنها ، المحدّدة لها . ونحن لا نرتاح إلى أمر كهذا ، مثلما أننا لا نرتاح إلى رسام تقوده الأصباغ التي بين يديه إلى نوع الأشكال التي يرسمها ...

ومهما يكن موقفنا من هذا الاهتمام بالألفاظ ، فإن من الواضح أن شعراء الفترة التي نعالجها ، ومنهم ابن القيسراني ، قد طغت اللفظية على شعرهم طغياناً عظيماً .

وشعر ابن القيسراني بالذات ، يبدو وكأنه معرض لأنواع الزخارف اللفظية ، ما بين جناس وطباق وتقسيم وحسن تعليل وتورية وترصيع ولعب على الألفاظ وغلوّ ومفارقات ... إلى آخر أنواع فن الزخرف اللفظيّ . وسنورد فيما يلي بعض شواهد على ذلك لمجرّد التمثيل ، لاستحالة استيعاب هذه الشواهد ، لأنها تمثل شعر ابن القيسراني كلّه تقريباً .

فمن تجنيساته قوله :

يقوّي معاقله جاهداً وهل عاقل بعدها عاقل[1]

* * *

والسيف هام على هام بمعركة لا البيض ذو ذمة فيها ولا اليلب
وللأسنّة عما في صدورهم مصادر أقلوب تلك أم قلب
حتى الطوارق كانت من طوارقهم ثارت عليهم بها من تحتها التّرب
من باتت الأسد أسرى في سلاسله هل يأسر الغُلْب إلا من له الغَلَب
يا من أعاد ثغور الشام ضاحكة من الظبا عن ثغور زانها الشنب
حللت من عقلها أيدي معاقلها فاستحلفت وإلى ميثاقك الهرب[2]

* * *

فيا نعمة شمل الشاكرين فضلك افضالها الشامل[3]

* * *

ومسومات لست تدرك في الوغى بقوائم يدركن أم بقودام
وارم الأعادي بالعوادي انها كفلت بفلّ قديمهم والقادم
لا زال وجهك في عقود سعوده بدر التمام مقلداً بتمائم[4]

وإذا جاز أن نعتبر هذه الشواهد القليلة نماذج لتجنيسات ابن القيسراني ، فإننا ندرك تركيز الشاعر القوي على الكلمة ، التي قد توحي له ايحاء صرفياً يدفعه إلى التماس الاشتقاقات منها ، كما في فضل وافضال ، ومعاقل وعاقل وقديم وقادم . وقد يتأثر الشاعر برسم الكلمة ، فيتلمّس كلمات تشركها كلياً في حروفها وحركاتها أو جزئياً في بعض هذه الحروف والحركات ، كما هي الحال في (هام : اسم فاعل من همى،و هام : جمع هامة) ،

---

١ – الخريدة ج١ ص ١١٠ .
٢ – الأبيات البائية هذه مأخوذة من كتاب « الروضتين » ج١ ق١ ص ١٥٣،ص ١٥٤ .
٣ – الخريدة ج١ ص ١٠٩ .
٤ – الأبيات الميمية الثلاثة مأخوذة من الخريدة ج١ ص ١١٣ ، ١١٤ .

وفي (طوارق : رماح) و (طوارق : نوازل) و(ثغور : بلدان الحدود) و (ثغور : أفواه) ، ثم في : غُلْب وغَلَب ، وصدور ومصادر ، وقلوب وقُلُب ، وتمام وتمائم . وقد يكون تداعي الألفاظ قائماً على وزن الكلمة وايقاعها ، ممّا يدفع الشاعر إلى التماس كلمة توائمها وتتناغم معها كما هي الحال في قوائم وقوادم ، وأعادي وعوادي ... وهذا التداعي بأشكاله المختلفة الذي تثيره مفردات اللغة،يدلعلى حسّ لغويدقيق تميّز به ابن القيسراني.

ولعلّ هذا الحسّ الدقيق بصورة الكلمة وجرسها ، قد دفع الشاعر إلى نوع من التجنيس الحرفيّ ، يهتمّ فيه بالمشاكلة الصوتية ، ممثلة في تكرار حرف معين في كلمات البيت الواحد أو ما يسمّى عند الانجليز alliteration وهذه أمثلة ثلاثة على ذلك :

من باتت الأسد أسرى في سلاسله هل يأسر الغلب إلا من له الغلب

والكرّ والفرّ سجال الوغى فطارد طوراً ومطرود[1]

فلو قدّيسها ناجاه لفظي لأمسى والنسيب لها نسيب[2]

وإذا كان التجنيس نوعاً من التداعي الذي يحركه رسم اللفظة أو صوتها، فإن الطباق الذي أولع به ابن القيسراني كذلك ولعاً شديداً ، يمثل تداعياً يحركهُ معنى اللفظة ، لأن الشيء قد يذكر بنقيضه ، مثلما أنه قد يذكر بشبيهه . وحين يورد نقيض الشيء أو الأشياء ، يتولّد الطباق أو المقابلة . والجمع ما بين الأشياء المتقابلة من الأمور الشائعة في أنواع الفن المختلفة ، لا في فن الكلمة فحسب . ولعل انفساح الخيال الذي يتميز به المشتغلون بالفن — ومنه الشعر — تجعل عملية القفز الذهني من الشيء إلى نقيضه أمراً شائعاً عندهم . وصور المطابقة والمقابلة عند القيسراني من الكثرة شأنها في ذلك شأن تجنيساته . بحيث يتعذر استقصاؤها . ولذا فإننا نكتفي

---

١ — كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٤٦ .

٢ — مخطوطة الديوان ص ٦٤ .

بشواهد رمزيّة عليها . يقول الشاعر :

بسابقة العلم فتّ الأنام ... وهل يدرك العالم الجاهل
تأمل مطالع هذا الكلام ... وإلا فكوكبه آفل
وأنت الحليّ على المكرمات ... فلا وصفت أنها عاطل[1]

ويقول :

ما يوم «إنّب» والأيام دائلة ... من يوم يغرا بعيد لا ولا كثب
غضبت للدين حتى لم يفتك رضى ... وكان دين الهدى مرضاته الغضب

* * *

ذو غرّة ما سمت والليل معتكر ... إلا تمزّق عن شمس الضحى الحجب
سما عليها سموّ الماء أرهقه ... انبوبه في صعود أصلها صبب
هذا ، وهل كان في الإسلام مكرمة ... إلا شهدت وعباد الهوى غيب[2]

وكأنّ الأقدمين قد لاحظوا كثرة الطباق والجناس في شعر ابن القيسراني فنعتوه بأنه « كثير التطبيق والتجنيس »[3] و « صاحب التطبيق والتجنيس »[4].

ومع أن إيراد الشيء يتلوه نقيضهُ ليس بالجديد في شعر العرب وكلامهم كما هو واضح في شعر الجاهلية ونصوص القرآن الكريم ، باعتبار أن ضدّ الشيء يزيده ايضاحاً حين يذكر معه ، إلا أن التلمس الواعي لذلك ، مما قد يصل بصاحبه إلى حدّ التكلّف والعناء ، كثيراً ما يلاحظ في مطابقات ابن القيسراني . بل انه لينتزع طباقاته أحياناً من شعر من سبقوه من الشعراء، كما هو واضح على سبيل المثال في استمداده في الأبيات البائية المتقدمة من طباقات أبي تمام في قصيدة « عمورية » .

* * *

١ – الخريدة ج١ ص ١١١ .
٢ – الأبيات البائية مأخوذة من كتاب « الروضتين » ج١ ق١ ص ١٥٣، ١٥٤ .
٣ – ابن القلانسي في « ذيل تاريخ دمشق » ص ٣٢٢ .
٤ – العماد الأصفهاني في « الخريدة » ج١ ص ١١٠ .

ومن ألوان الصنعة اللفظية التي أولع بها ابن القيسراني ، ذلك اللون من المفارقات الموهمة للتناقض ، وهو صورة من الحذلقة العقلية ، كثيراً ما نصادفها في شعر العصر :

فها هو السيف الصليبي « ناصر » « خاذل » في آن واحد :

وقد قلّدوا السيف تحصينهم ولكنه الناصر الخاذل

والقلم في يد الوزير « صامت » « قائل » :

ولمْ لا تحيط بآفاقها وفي يدك الصامت القائل

وأحمد المرهفات هو « القاطع » « الواصل » :

متى ترك الحمد والمرهفات فأحمدها القاطع الواصل[1]

و « المهزوم » ، يكون وراء « الهازم » عند ابن القيسراني :

يرمي بفارسه وراء طريده حتى يرى المهزوم خلف الهازم

و « العواصم » التي يعتصم بها المحاربون على حدود الأعداء ، تصبح « غير عواصم » :

ولشمّرت عنها الثغور وأصبحت فيها العواصم وهي غير عواصم[2]

وهذه مجموعة أخرى من مفارقات ابن القيسراني :

وبسطت بالأموال كفّاً طالما طالت بها الآمال وهي قصار

وغدت جيادك بالشآم مقيمة ولها بأطراف الدروب مغار[3]

* * *

هذا ، وكم من سنّة بدعة أعدمتها من بعد ايجادها[4]

---

١ – الأبيات الثلاثة من « الخريدة » ج١ ص ١١٠، ١١١ .

٢ – الخريدة ج١ ص ١١٣ .

٣ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٧٥ .

٤ – المصدر نفسه ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

ويشتمل شعر ابن القيسراني على غير هذه الأصناف من الأنماط البديعيّة ، كالترصيع ، والتقسيم ، وحسن التعليل ، والتورية ، واللعب على الألفاظ ، والمبالغة والاغراق وغيرها ، وهي منبثّة في تضاعيف شعره ، وقد ورد منها الكثير في الأمثلة الكثيرة التي استقيت من قصائده في مواضع مختلفة من هذا البحث .

* * *

ويدخل في خصائص شعر ابن القيسراني المتأثرة بمقاييس عصره الأدبية ، الاغراب في التشبيهات والاستعارات ، وتناول صورها من بعيد . ولا يملك المرء إلا أن يتساءل عما إذا كان هذا الاتجاه في الاغراب عند الشاعر ومعاصريه يمثل تأثراً برأي لعبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ أورده في « أسرار البلاغة » ، يتعلّق بالتعمّق في المعاني واختيار الصور ، وانتزاع وجوه الشبه من مواطن لا يظن وجودها فيها . يقول الناقد الكبير : « ومعلوم أنّ الشيء إذا علم أنه لم ينل من أصله إلا بعد التعب ، ولم يدرك إلا باحتمال النصب ، كان للعلم بذلك من أمره من الدعاء إلى تعظيمه وأخذ الناس بتفخيمه ما يكون لمباشرة الجهد في ملاقاة الكرب دونه . وإذا عثرت بالهوينى على كنز من الذهب ، لم تخرجك سهولة وجوده إلى أن تنسى جملته : أنه الذي كدّ الطالب وحمل المتاعب »[1] .

والواقع أن هذا الاغراب في التشبيه الذي يدعو إليه عبد القاهر في القرن الخامس الهجري ، ويشفع دعوته إليه بتعليلات عقليّة ، قد وجدت منه صور في القرنين الثالث والرابع الهجريين في شعر أبي تمام وأبي الطيب المتنبي . وقد بالغ كلا الشاعرين في اغرابهما هذا مبالغة جلبت عليهما المؤاخذة والنقد .

وهذه بعض صور من اغراب ابن القيسراني في استعاراته وتشبيهاته :

---

١ – أسرار البلاغة مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٣٦٠ هـ ص ١١٥ .

يقول الشاعر عن فتح عماد الدين لمدينة الرّها :

وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا سناها وان فات العيون اتقساده
أراح قلوباً طرن من وكناتها عليها فوافى كل صدر فؤاده[1]

ويقول في الأمير الصليبي الذي رفع رأسه على سنان الرمح :

عجبت للصعدة السمراء مثمرة برأسه ان إثمار القنا عجب
سما عليها سموّ الماء أرهقه انبوبه في صعود أصلها صبب
ما فارقت عَذَبَ باتُ التاج مفرقه إلا وهامته تاج بلا عذب[2]

ويقول بعد معركة انتصر فيها نور الدين على نهر العاصي ، متحدّثاً عن نذر للسيوف تفي به عند استرجاع القدس :

وقد أدّت البيض الحداد فروضها فلا عهدة في عنق سيف ولا نذر
وصلّت بمعراج النبيّ صوارم مساجدها شفع وساجدها وتر[3]

* * *

وقريب من هذا الاغراب في التشبيهات والاستعارات ، ضرب من التماس المعاني الجديدة ، التماساً واعياً ، بل ومتعسفاً في بعض الأحيان ، بغرض التجديد ، أو الاختراع المتعمد ! ولعلّ هذه الاتجاه في تلمّس الجديد والمخترع من المعاني ، قد انبثق أصلاً عن فكرة غريبة قال بها بعض نقاد العرب قبل عصر القيسراني وخلاله وبعده ، مؤداها أن المعاني الشعرية قد سبق إليها الأقدمون ، ولم يبقوا منها للاحقين إلا القليل النادر ! وحيث إن هذه المعاني قد استنضبت ، فلم يبق أمام الشاعر اللاحق ، إلا أن ينظر فيما

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٩٧ .
٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٩٧ .
٣ – المصدر نفسه ج١ ق١ ص ١٨٦ – ١٨٧ .

خلّفه السابق ، ليشتق من معانيه شيئاً جديداً .

يقول أبو الحسن محمد بن طباطبا من رجال أواخر القرن الثالث الهجري في كتابه « عيار الشعر » : والمحنة على شعراء زماننا في أشعارهم أشدّ منها على من كان قبلهم ، لأنهم قد سبقوا إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح ، وحيلة لطيفة ، وخلابة ساحرة . فإنأتوا بما يقصر عن معاني أولئك ولا يربي عليها ، لم يُتلقوا بالقبول ، وكان كالمطّرح المملول[1] . ولذا فلا ضير على « المولّدين » أن يستفيدوا من السابقين شريطة أن يلطفوا في تناول اصول معانيهم : « وسنعثر في اشعار المولدين بعجائب استفادوها ممّن تقدمهم ، ولطفوا في تناول أصولها منهم ، والبسوها على من بعدهم ، وتكثّروا بابداعها فسلمت لهم عند ادعائها ، للطيف سحرهم فيها ، وزخرفتهم لمعانيها[2] » . وانسجاماً مع هذا الاتجاه ، يقدّم ابن طباطبا نصيحة للشاعر المولّد مؤدّاها أن « يديم النظر في الأشعار التي قد اخترناها لتلصق معانيها بفهمه ، وترسخ أصولها في قلبه ، وتصير مواد لطبعه ، ويدور لسانه بالفاظها . فاذا جاش فكره بالشعر ، أدّى إليه نتائج ما استفاده مما نظر فيه من تلك الأشعار ، فكانت تلك النتيجة كسبيكة مفرغة من جميع الأصناف التي تخرجها المعادن ، وكما قد اغترف من واد قد مدته سيول جارية من شعاب مختلفة ، وكطيب تركب من اخلاط من الطيب كثيرة ، فيستغرب عيانه ، ويغمض مستبطنه »[3].

وفي القرن الرابع الهجري ، نسمع رأياً غريباً قال به الشاعر أبو العباس

---

١ – انظر « عيار الشعر » بتحقيق وتعليق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام . المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٥٦ ص ٨–٩ .

٢ – المصدر نفسه ص ٨ .

٣ – انظر « عيار الشعر » بتحقيق وتعليق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ص١٠ . وانظر كذلك مطالعات الدكتور عبد العزيز الأهواني القيمة على موضوع استئثار الأقدمين بالمعاني في كتابه « ابن سناء الملك ، ومشكلة العقم والابتكار في الشعر » ص ١١٣ – ١١٥ .

النامي ، الذي عاش حينا في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب ، وذلك حين يتحدث عن المعاني الشعريّة التي ذهب بها السابقون من الشعراء ، الذين لم يتركوا للاحقين إلا زاوية واحدة من زوايا الشعر وهذه الزاوية اهتدى إليها المتنبي ، حيث سبقه كما يقول إلى معنيين كان يودّ لو كان هو السابق إليهما ، ثم يأتي بعد ذلك ببيتين للمتنبي يرى أنهما تضمّنا هذين المعنيين[1] ! وما أعجب أن يظن ناقد أو شاعر أن الحياة الإنسانية المتجددة أبداً ، لا تحتوي إلا على قدر محدود من الأفكار والمعاني ، وأن هذا القدر يمكن أن يستنضب على يد عدد من الشعراء السابقين ، فيصبح اللاحقون عالة عليهم !

وفي القرن الخامس الهجري نرى ابن رشيق القيرواني يقول في « العمدة » : « وإنما مثل القدماء والمحدثين ، كمثل رجلين ، ابتدأ أحدهما بناء فأحكمه واتقنه ، ثم أتى الآخر ، فنقشه وزيّنه . فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن . والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن »[2] . ويتضح من قول ابن رشيق أنه يقصر دور اللاحقين من الشعراء على « النقش والتزيين » ، في حين أن القدماء هم الذين صنعوا مادة الشعر .

وفي القرن السادس الهجري ، نجد ضياء الدين ابن الأثير الذي عاش ما بين ٥٥٨ هـ و ٦٣٧ هـ ، يربط ما بين المعاني « المخترعة » والمعاني القديمة ربطاً وثيقاً ، وذلك حين ينصح بالاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم والمنثور « فإن في ذلك فوائد جمّة ، لأنه يعلم منه أغراض الناس ونتائج أفكارهم ، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم ، وإلى أين ترامت به صنعته في ذلك ، فإن هذه الأشياء مما تشحذ القريحة ، وتذكي الفطنة ، وإذا كان صاحب هذه الصناعة عارفاً بها ، تصير المعاني التي ذكرت وتعب في استخراجها كالشيء الملقى بين يديه ، يأخذ منه ما أراد ، ويترك ما أراد . وأيضاً ،

---

١ – انظر وفيات الأعيان . مطبوعات دار المأمون ، القاهرة ١٩٣٦ . ج١ ص٢٥٧–٢٥٨.

٢ – العمدة ط القاهرة ١٩٣٤ ج١ ص ٧٤ .

فإنه إذا كان مطلعاً على المعاني المسبوق إليها ، قد ينقدح له من بيتها معنى غريب لم يسبق إليه . ومن المعلوم ، أن خواطر الناس ، وان كانت متفاوتة في الجودة والرداءة ، فإن بعضها لا يكون عالياً على بعض ، أو منحطّاً عنه إلا بشيء يسير »[1] .

لا غرو إذن ، أن نجد شعراء العصر ، ومنهم ابن القيسراني يتلمسون « اختراع » المعاني عن طريق « انقداحها » لهم من خلال معان سبقوا إليها . والظاهر أن هذه « الاختراعات » كانت تروق لأدباء العصر ، كما هو واضح من اعجاب العماد الأصفهاني ببيت للقيسراني يقول فيه :

وأهوى الذي يهوي له البدر ساجدا ألست ترى في وجهه أثر الترب

فيقول معلقاً : وقد أحسن في الصنعة والمعنى على الرغم من أنه (العماد) بيّن أن البيت مأخوذ من قول المعرّي :

وما كلفة البدر المنير قديمة ولكنها في وجهه أثر اللطم[2]

ويستبدّ الاعجاب بالعماد أكثر من ذلك ، حين يورد بيتاً آخر لابن القيسراني ، فيه « اختراع » آخر :

إذا كانت الأحداث ضرباً من الظبي فلا شكّ أن اللحظ ضرب من الضرب

فيقول العماد معلقاً : « قوله ضرب من الضرب ، الضّرَب : (العسل) ، بل أحلى منه عند أهل الأدب ، ونوع من محدثات الطرب ، والقاضيات بالعجب ، وما أحسن وقوع هذا التجنيس موقعه ، ووضع المعنى فيه موضعه ، حتى قلت في هذا البيت : ما أصنعه »[3] .

---

١ – المثل السائر ط القاهرة ١٩٣٩ ج١ ص ٢٩ .

٢ – الخريدة ج١ ص ٩٧ .

٣ – الخريدة ج١ ص ٩٧ – ٩٨ .

ويقول الفقيه عليّ الخيمي ، الذي أنشد البيت المذكور للعماد سنة ٥٥٣هـ في معرض تعقيبه على البيت واعجابه به :

« أنشدني القيسراني لنفسه بحلب بيتاً من قصيدة ، استدللت به على معرفته بالمنطق وكلام الأوائل ، وقد أعجز وأعجب ، وأبدع وأغرب »[١] .

وثمّة قصة أخرى ، أوردها ضياء الدين بن الأثير عن ابن الخياط شيخ ابن القيسراني ، تحمل هي الأخرى الدلالة على اعجاب أهل العصر بالمعاني المخترعة أو الغريبة . حتى ولو كانت مشتقّة أو مولّدة من معاني السابقين . يقول ابن الأثير : وكنت سافرت إلى الشام في سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، ودخلت مدينة دمشق ، فوجدت جماعة من أدبائها يلهجون ببيت من شعر ابن الخياط في قصيدة له أولها :

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه فقد كاد ريّاها يطير بلبّه

ويزعمون أنه من المعاني الغريبة ، وهو :

أغار إذا آنست في الحيّ أنّة حذار عليه أن تكون لحبّه

فقلت لهم : هذا البيت مأخوذ من شعر أبي الطيب المتنبي في قوله :

لو قلت للدنف المشوق فدَيْتُهُ مما بـه لأغرتُـه بفـدائـه

ثم يردف قائلاً : وقول أبي الطيب أدق معنى وإن كان قول ابن الخياط أرق لفظاً [٢] .

هذا الاختراع ، أو تلمّس المعاني الطريفة والجديدة ، سمة ظاهرة من سمات شعر ابن القيسراني ، ولا تكاد قصيدة واحدة تخلو من شيء

---

١ – المصدر نفسه ص ٩٧ .

٢ – المثل السائر ط القاهرة ١٩٣٩ ج٢ ص ٣٦٦ – ٣٦٧ . وقد أورد فاروق جرار رواية ابن الأثير هذه في رسالة الماجستير التي تقدم بها عام ١٩٦١ ص ١٣٢ على الآلة الكاتبة .

منه . وفيما يلي نماذج منه اختيرت دونما تخصيص من قصائده الحربية :

يقول الشاعر في مدينة الرّها بعد فتحها عام ٥٣٩ هـ :

تفوت مدى الأبصار ، حتى لو أنها ترقّت إليه خان طرفا سواده

ويقول في عماد الدين الذي استعاد المدينة :

كأنّ سنا لمع الأسنّة حوله سِرارٌ ولكن في يديه زناده
مصيب سهام الرأي لو أن عزمه رمى سدّ ذي القرنين أصمى سداده[١]

وربما كانت الإشارة إلى ذي القرنين هنا ، وليدة قول المتنبي في محمد ابن زريق الطرسوسي :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لمّا أتى الظلمات صرن شُموساً[٢]

ويقول في الأمير الصليبي القتيل الذي رفع رأسه فوق سنان الرمح ، محاولاً أن « يبدع » و « يخترع » :

ترجّل للسلام ففرّسوه وليس سوى القناة له جواد[٣]

ويقول في مدح نور الدين وفوارسه :

قوم إذا انتضت السيوفَ أكفُّهم قلت الصواعق في متون غمائم
من كل منصور السنان بعُجْمَةٍ وهل الأسود الغُلْبُ غير أعاجم
أهلاً بما حملت إليك جيادهم ما في ظهور الخيل غير غنائم
واسأل فوارس حاكموك إلى القنا في الحرب كيف رأوا لسان الحاكم
تلك العوامل ، أيّ افعال العدى ما سكّنتْ حركاتها بجوازم ؟![٤]

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٩٦ – ٩٧ .
٢ – ديوان المتنبي ، شرح اليازجي ج١ ص ١٧٠ .
٣ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٤٦ .
٤ – الخريدة ج١ ص ١١٣ ، ١١٤ .

والناظر في شعر ابن القيسراني بحثاً عن المعاني « المخترعة » بوعي وتخطيط من الشاعر ، يجد الكثير من ذلك ، ولا بدّ له إذ ذاك أن يتساءل : كيف يمكن أن يطلب المعنى الشعري عن طريق عملية عقلية واعية فيها عنصر التخطيط والعزم المسبق على الأتيان بمعنى طريف غريب مخترع ؟! قد يعجب المولعون بالطرائف بأبيات تتضمن مثل هذه المعاني ، ولكنها تبقى بعد ذلك عملاً من أعمال الحذلقة ، أكثر منها فيضاً أصيلاً عن نفس شاعرة !

obeikandl.com

طوابع شخصيّة :

تركت النزعة الاتباعية في الأدب التي كانت سائدة في عصر ابن القيسراني وكذلك مقاييس عصره الأدبية ، وطبيعة الموضوع الذي عالجه في قصائده الجهادية ، تركت كل هذه آثارها فيما نظم الشاعر من شعر في حروب المسلمين مع الصليبيين .

ولكن شخصيّة ابن القيسراني لم تكن مع ذلك كلّه ، غائبة تماماً في هذا الشعر . ولعلّ أظهر ما تركته شخصية الشاعر فيما نظم منه ، ما ارتبط بأنواع الثقافات والخبرات التي فقهها ومارسها . ولا يخفى أن ثقافة الإنسان وخبراته ، تغدو مع الزمن جزءاً لا يتجزأ من شخصيته ، وتترك آثارها في تصوراته وتفكيره ، وما يصدر عنه من قول أو عمل ، سواء أكان ذلك نتيجة الاستمداد الواعي ، أو بالسلوك التلقائي اللاشعوريّ .

وابن القيسراني ، كما يقول من أرخوا له وكتبوا عنه ، كان ذا ثقافة واسعة متنوعة ، ظهرت آثارها متفرّقة منبثّة في شعره . فقد درس في دمشق على توفيق بن محمد ، وعلي ابن الخياط الشاعر ، وسمع في حلب من هاشم ابن أحمد الحلبي وأبي طاهر بن الخطيب[1] .

---

١ – انظر : مرآة الزمان ج ٨ ص ٢١٣ معجم الأدباء ج ١٩ ص ١٤ . أخبار العلماء باخبار الحكماء ص ٥٧٤ . وفيات الأعيان ج٤ ص ٨٢ . الدارس ج٢ ص ٣٨٨ .

ويقول سبط ابن الجوزي عن توفيق بن محمد ، إنه قرأ الأدب وبرع فيه ، وقال الشعر الحسن[1] ، كما يصفه بأنه نحوي . ويضيف القفطي إلى ذلك ، أن توفيق بن محمد ، كانت له مشاركة في الهندسة والتنجيم وأنه علّم وكتب تصانيف . وكان له في دمشق تلاميذ ، أصبحوا بدورهم شيوخاً ، وكان هؤلاء يصفونه بالعلم والفهم[2] .

أما ابن الخياط ، فقد كان شاعراً مجيداً، قيل انه « بلغ في النظم الدرجة الأولى » وأنه كان « شاعر الشام في زمانه »[3] .

ويذكر ابن القلانسي أن ابن القيسراني كانت له « يد قوية في علم النجوم والأحكام والهيئة ، وحفظ الأخبار والتواريخ[4] . في حين نجد في مصادر أخرى أنه كان عارفاً بالهندسة والحساب والمنطق وكلام الأوائل »[5] . ويقول ابن العماد الحنبلي أنه تولى ادارة الساعات التي بدمشق[6] ، وقبله ذكر سبط ابن الجوزي نقلاً عن الحافظ ابن عساكر أنه تولّى عمل الساعات عند باب جيرون على الدرج[7] . أما في حلب ، فقد قيل انه تولّى خزانة الكتب[8] .

وبوسعنا أن نضيف إلى هذه الثقافات الواسعة ، أن الشاعر لا بدّ أن تمرّس بالكثير من مسميات الحرب ومصطلحاتها، بحكم البيئة التي عاش فيها ،

---

١ – مرآة الزمان ج ٨ ص ١٠٣ – ١٠٤ .

٢ – أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٧٤ .

٣ – انظر فيما يتعلق بابن الخياط : وفيات الأعيان ج١ ص ١٢٧ . شذرات الذهب ج٤ ص ٥٤ . مرآة الجنان ج٣ ص ٢١٢ . البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٩٤ .

٤ – ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٢ .

٥ – انظر : الخريدة ج١ ص ٩٧ . وفيات الأعيان ج٤ ص ٨٢ . الدارس ج٢ ص٣٨٨ شذرات الذهب ج٤ ص ١٥٠ .

٦ – شذرات الذهب ج٤ ص ١٥٠ .

٧ – مرآة الزمان ج ٨ ص ٢١٣ .

٨ – انظر كتاب الأعلام ج ٧ ط ٢ ص ٣٤٧ .

وهي بيئة لم تكد تعرف السلم في زمنه إلا لماماً ...

أوردنا الحديث عن ثقافة الشاعر وخبراته ، لا لكي نفرض على شعره أثراً من هذه أو تلك ، بل لكي نفسر ما نجده فعلاً في هذا الشعر من خصائص وسمات .

وانطلاقاً من الاستقراء الداخلي لشعر ابن القيسراني ، في تلمس الحكم عليه ، نورد فيما يلي أبياتاً ، يظهر فيها أثر معرفة الشاعر بأنواع من العلوم أو الفته بمادتها ومصطلحاتها على أقل تقدير .

هذه أولاً أبيات تكشف عن ثقافة الشاعر المتصلة بالقرآن الكريم ، والحديث الشريف :

اتبعت جنّ سراياهم مضمرّة ... فيها نجوم إذا جدّ الوغى رجموا [1]

والنصر دان وخيل الله مقبلة ... ترجو الشهادة في الهيجا وتغتنم [2]

فأضرمها نارين حرباً وخدعةً ... فما راع إلا سورها وانهداده [3]

مصيب سهام الرأي، لو أن عزمه ... رمى سدّ ذي القرنين أصمى سداده [4]

بسابقة العلم فتّ الأنام ... وهل يدرك العالم الجاهل [5]

نال المعالي حاكماً مالكاً ... فهو سليمان وداود

---

١ – الفكرة مستقاة من الآية الكريمة : « لقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين » سورة الملك ، آية ٥ .

٢ – عبارة « خيل الله » مأخوذة من قول الرسول الكريم : « يا خيل الله اركبي » . انظر سنن ابي داود ط القاهرة ١٩٥٢ ج٢ ص ٢٤ .

٣ – الفكرة مأخوذة من قول الرسول الكريم : « الحرب خدعة » . انظر صحيح البخاري باب « الحرب خدعة » ج٤ حديث رقم ٣٠ . وكذلك سنن ابن ماجة باب الخديعة في الحرب » حديث رقم ٢٨٣٣ .

٤ – الحديث عن ذي القرنين وسده مرتبط بآيات قرآنية ، وردت في آخر سورة الكهف .

٥ – في العجز استمداد مباشر من قوله تعالى : « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » سورة الزمر ، آية ٩ .

وإنمـا الافرنج من بغيها عاد وقد عاد لهـا هـود
قد حصحص الحق فما جاحد في قلبه بأسـك مجحـود[1]

* * *

ويغشى حومة الهيجا همام يشدّ بضبعه السبع الشداد[2]

* * *

كلّفت همتك العلوّ فحلّقت فكأنما هي دعـوة في ظـالم[3]
قطنت باوطان النجوم فكم لها من مارد قذفت إليـه براجم[4]

* * *

وقد علم الأعداء مذ بتّ جانحاً إلى السلم ما تنوي بذاك وما تنحو[5]
كأنّ القنـا تجلو لـه وجـه أمره ولو امهلت «بلقيس» ماغرّها الصرح[6]

* * *

هي القانتـات الحـافظات فروجها فشاهدها عـدل ورائقهـا سحر[7]

* * *

تعاقبه البشرى بأخـذ حصونه فيا عانياً ضرب البشائر ضربه[8]
أمتخذ الأخـلاص لله جنة ومن يعتصم بالله فالله حسبه[9]

* * *

---

١ – الأعلام في أول بيتين قرآنية ، وعبارة « حصحص الحق » مأخوذة حرفياً من سورة يوسف آية ٥١ .
٢ – « السبع الشداد » قرآنية مستمدة من سورة النبأ ، آية ١٢ .
٣ – « دعوة في ظالم » مأخوذة من حديث الرسول عليه السلام « اتقوا دعوة المظلوم » انظر « سنن الترمذي » ، باب « الدعوات » رقم ١٢٨ .
٤ – فكرة رجم الشياطين من السماء قرآنية . انظر سورة « الصافات » الآيتين ٦، ٧ .
٥ – الفكرة مأخوذة من قوله تعالى : « فان جنحوا للسلم فاجنح لها » سورة الأنفال آية ٦١ .
٦ – اشارة إلى قصة ملكة «سبأ» التي أوردها القرآن . انظر سورة « النمل » آية ٤٤ .
٧ – الفاظ الشطر الأول قرآنية . انظر سورة « النساء » آية ٣٤ .
٨ – فكرة البيت مأخوذة من قوله تعالى : « فبشر الذين كفروا بعذاب أليم » سورة التوبة آية ٣ .
٩ – فكرة البيت مأخوذة من قوله تعالى : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » سورة الطلاق آية ٣ .

يطوي بك العمر إلي غاية حسبك تقوى الله من زادها[1]
مآثر لو عدمت راويا تكفّل النظم بأسنادها[2]

* * *

ذو الجهادين من عدوّ ونفس فهو طول الحياة في هيجاء[3]

* * *

وإذا سرايا خيله قفلت نهضت سرايا الخوف والذعر[4]

* * *

وهذان بيتان فيهما أثر المام الشاعر بالمصطلحات الصوفيّة :

إلا تكن أحد الابدال في فلك التقوى فلا نتمارى انك القطب[5]

* * *

فأنت نسكاً غيث أبدالها وأنت فتكاً ليث آسادها[6]

وفي البيتين التاليين ، أثر من ثقافة الشاعر النحويّة ، لا يخلوان من حذلقة :

فأما نُصِبتَ لرفع اسمها فانكما الفعل والفاعل[7]

* * *

---

١ – فكرة البيت مستمدة من قوله تعالى : «وتزودوا فان خير الزاد التقوى» سورة البقرة آية ١٩٧ .

٢ – في البيت من مصطلح الحديث كلمتا «الراوي» و «اسنادها» .

٣ – فكرة البيت مأخوذة من قول الرسول عليه السلام : «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» . وقد عنى بالجهاد الأكبر مجاهدة النفس . انظر حاشية الباجوري على ابن قاسم ط ٢ المكتبة الحديثة ج٢ ص ٢٦٨ .

٤ – الفكرة مأخوذة من الحديث النبوي : «بعثت بجوامع الكلم ونصرت بالرعب» . انظر صحيح البخاري ، كتاب الجهاد والسير حديث رقم ١٨١ . ومسند أحمد ج٤ حديث رقم ٢٧٤٢ .

٥ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٤٦ .

٦ – المصدر نفسه ص ٢٠٩ .

٧ – الخريدة ج١ ص ١٠٩ .

تلك العوامل أي افعال العـدى ما سكّنت حركـاتها بجوازم [1]

وفيما يلي مصطلح عروضي :

وان تتل القوافي ما تلته بإنتسب ما يوئنبها سـناد [2]

وهذه بعض تعابير حسابيّة وفلكية :

وكيف بضبط بواقي الجهات من فات حسبته الحاصـل [3]

تأمل مطالع هـذا الكلام وإلا فكوكبـه آفـل [4]

* * *

ما زال حدّك يبني كـل شاهقة حتى بنى قبـة أوتادها الشهب [5]

* * *

نثرت عليك هوى القلوب محبة وتودّ لـو أن النجوم نثـار

فأقمت كالشمس المنيرة ان نأت عن افقها فلهـا بـه أقمار [6]

---

١ – الخريدة ج١ ص ١١٤ .

٢ – كتاب الروضتين ج١ ص ١٤٦ .

٣ – الخريدة ج١ ص ١١٠ .

٤ – الخريدة ج١ ص ١١١ .

٥ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٥٢ .

٦ – المصدر نفسه ص ١٧٥ .

obeikandl.com

وأمّا الثغريات ....

الشاعر الذي نظم القصائد الجهادية في محاربة الصليبيين ، هو نفسه ، الذي نظم الثغريّات ، فلِمَ تدرس خصائص الثغريّات ، منفصلة عن خصائص « الجهاديات » ؟ السبب هو اختلاف الموضوع ، وما ينبنى على تأثر أسلوب الشعر بموضوعه . والعلاقة ما بين الموضوع والأسلوب في النصّ الأدبي ، مما تنبّه إليه نقّاد العرب قديماً .

فها هو ابن طباطبا المتوفى سنة ٣٢٢ هـ يقول في « عيار الشعر » : وللمعاني ألفاظ تشا كلها ، فتحسن فيها وتقبح في غيرها ، فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض[١] .

وها هو علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب الوساطة ، المتوفى سنة ٣٦٦ هـ ، يقول في ذلك : « ولا آمرك في اجراء الشعر كله مجرى واحدا ، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه ، بل أرى لك أن تقسّم الألفاظ على رتب المعاني ، فلا يكون غزلك كافتخارك ، ولا مديحك كوعيدك ، ولا هجاؤك كاستبطائك ، ولا هزلك بمنزلة جدّك ، ولا تعريضك مثل تصريحك ، بل ترتّبُ كلاً مرتبته ، وتوفيه حقه ، فتلطّفُ إذا تغزلت ، وتفخّمُ إذا افتخرت ، وتتصرّفُ للمديح تصرّف مواقعه ، فإن المدح بالشجاعة والبأس ،

١ – عيار الشعر ، ط القاهرة ١٩٥٦ ص ٨ .

يتميّز عن المدح باللباقة والظرف ، ووصف الحرب والسلاح ، ليس كوصف المجلس والمدام ، فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه »[1] .

وعلى صعيد النقد الغربي ، وجدنا النقاد الألمان يقولون بوجود نهج منتظم الأصول في الصناعة الأدبية ، يقوم على افتراض وجود موازاة ما بين الخصائص اللغويّة في النصّ الأدبي ، والعناصر المكونة لمحتواه[2] .

وقد سبق أن بيّنا عند الحديث عن « ثغريات » ابن القيسراني فيما مضى من صفحات ، أن الطابع الغالب على موضوعها هو انفعال الشاعر بالجمال البشري ، وما تهيأ له من صنوف اللهو في المنطقة المحتلة التي زارها في الشمال . ومن هنا كانت « الثغريات » ضرباً من الشعر الوجداني اللاهي ، يخالطه أحياناً وصف لمشاهدات الشاعر في بيئة حضارية غريبة ، فلا غرو إذن أن تتميّز « الثغريات » بخصائص الشعر الوجداني بصورة عامة ، من رقّة في اللفظ وسهولة في التعبير ،وموسيقيه وحلاوة في الجرس ، وانسيابيّة في النظم . أما البيئة الغريبة التي نظمت فيها « الثغريات » ، فقد استبان أثرها في مجموعة من الألفاظ الأجنبية والصور النصرانية . ولا نرى داعياً لايراد الشواهد على ما ذكرناه من خصائص ، لأن الكثير من هذه الشواهد ، يمكن الرجوع إليه في الصفحات التي خُصّصتْ للثغريات في الفصل الثاني .

وموضوع هذا النوع من شعر « ابن القيسراني » ، ترك أثره حتى على السمة الاتباعيّة ، التي لا يخلو منها هو الآخر . فاذا كانت الاتباعية في شعر ابن القيسراني الحربي تعني على وجه الخصوص ، التفاتاً إلى المتنبي ، بطابعه الفخم الضخم العنيف ، الذي يتّسق مع طبيعة الشعر الحربي . فإن

---

١ – الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ، الطبعة الثالثة ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ص ٣٨ .

٢ – انظر : Rene Wellek Q. A. Warren : Theory of Literature 4th ed. London 1955 P. 187.

الاتباعية في ثغريات ابن القيسراني ، كانت على وجه الخصوص التفاتاً إلى أبي نواس ، شاعر اللهو والمجون . وأيّ شاعر عربي نظم شعراً عابثاً لاهياً بعد أبي نواس ولم يتأثر به بصورة أو بأخرى ؟!

وهنا ينبغي أن نتذكر أن تجارب أبي نواس في ديارات النصارى ، بما احتوته من ضروب اللهو ، لا تختلف كثيراً عن تجارب ابن القيسراني من بعده ، في ديارات أنطاكية وما صاحبها . ولا تقتصر أوجه الشبه ما بين « ثغريات » ابن القيسراني وشعر النواسيّ اللاهي على الاطار العام ، بل تتعدى ذلك إلى كثير من التفصيلات كذلك . وإذا كانت خمريات أبي نواس وغلمانياته تنبيء عن استهتار ورقة دين ، فإن قصيدة ابن القيسراني التالية لا تخلو من العنصرين ، فضلاً عن أنها تحمل الروح النواسيّة بوضوح :

لو كنت ثالثنا باشمونيثا ... حتى ترى التوحيد والتثليثا
لرأيت منا أعيناً طماحة ... تستحسن التذكير والتأنيثا
(من كل ؟) محتضن يجاذب ردفه ... فكأنه احتقب الرمال الميثا
ومهفهف لعب الصبا بقوامه ... حتى توهمت الشباب خنيثا
لما سألت علالة من ريقه ... ملأ الزجاجة ثم جاء حثيثا
قلت اسقني من فيك إن رضابه ... قد ردّ أطيب ما حملت خبيثا
قال اعتبر (...) المزاج نسيبة ... ما عند ثغري يفهم الثالوثا
وبدا يناظرني بها عن دينه ... فقطعت ليلا بالجدال مكيثا
يختص عيسى بالصلاة وأصطفي ... لوطاً وتذكرنا المدامة شيثا
والبدر مبتسم كوجه خريدة ... قرنتْ به فرعاً عليه اثيثا
يا ليلة افردت طرفي فجرها ... عنقا يكون به المطيّ حديثا [1]

---

١ – مخطوطة الديوان ص ٧٢ .

ولا يفتقر شعر ابن القيسراني في «ثغرياته» إلى خفة الروح التي اتسم بها شعر النواسيّ وهي عنصر ساعد على تقبل ذلك الشعر وشيوعه على الرغم مما يتضمنه من تهتك ومجون .

فها هو ابن القيسراني يقول لقسّ بربارة مداعباً :

بدينك يا قسّ بربارة ... وما بتّ تتلوه في الخندس
أجرني من الصور الناطقات ... متى قمن حولك في مدرس
إذا هنّ أقبلن وقت الصلاة ... في كل لون من الأطلس
وجالت مناطق أوساطها ... وضاقت بها حلل السندس
وأجلسها ثقل أردافها ... فيا لي من ذلك المجلس
فلولا التحرّج في ملتي ... طلعت عليهن في برنس
وقمت الحنّ قدّاسهنّ ... غير بليد ولا أخرس
ولم تَكُ فرسانها في الطعان ... بأشجع مني ولا أفرس
ألا حبذا ما استثار الهوى ... بتلك الكنائس من كنّس
ترى كل فاتنة وجهها ... معرّى بشمس الضحى مكتس
تكاد التماثيل من حسنه ... تفور بناطقة الأنفس
فرنجيّة ساكن عقدها ... وزنارها قلق المجلس
إذا قبّلت صورة أقبلتْ ... عليها بناظرها الأشوس
فيا ليتني عندها دمية ... تراني ولا ريب في ملمسي
فأقسم لو أنني استطيع ... تحوّلت صورة مرجرجس[1]

وإذا كان أبو نواس يدّعي الفتك في شعره ، فليدّع ابن القيسراني مثل

---

١ – نفس المصدر ص ٧٠ – ٧١ .

هذا الفتك كذلك ، وذلك حين يقول :

كم لي بأنطاكية من هوى ... لا انثني عنه بتعفيف
إذ لا أجيل العين إلا على ... جيش من الأقمار مصفوف
من كل بيضاء مسيحية ... ما عندها البدر بموصوف[1]

أو حين يقول :

إن كان لا بدّ من السكر ... فمن يدي خمّارة الجسر
خمّارة تطلع من نحرها ... جمّارة بيضاء من نحر
تمشي فتمشي الراح في راحها ... تهدي سنا الشمس إلى البدر
حتى إذا دارت على شربها ... الحاظها أغنت عن الخمر
ما زرتها إلا وباتت يدي ... أولى من الزنار بالخصر
وبتّ أسقى من حفا * ريقها ... كأساً من الثغر على الثغر[2]

ولئن تقبّل ابن القيسراني مواقف المتنبي واحتذاها في شعره الحماسي ، فإنه في شعره اللاهي يرفض موقف المتنبي في الانتصار للبدويات وحياة البادية ، ويتقبّل موقف أبي نواس في الازراء بحياة البادية وايثار الحياة الحضريّة بما فيها ومن فيها . فها هو يقول في حسان الفرنجة :

سمعن بمن سكنّ بيوت شعر ... فأبرزن المحاسن في الشعور
وأمرحن النواظر في وجوه ... منزهة الخدود عن الخدور
تريك الحسن غير مبرقعات ... ألا ما في البراقع من غرور
فلو خادعت طرفك لم تعرّج ... به إلا على قمر منير

---

١ – مخطوطة الديوان ص ٦٢ .
٢ – نفس المصدر ص ٧٧ .
* لعل الكلمة « صفا » .

فدعني من مغازلة البوادي فلي شغل بسكان القصور[1]

ويقول مفضلاً «ماريّا» بنت الحضر، على بنات البادية :

إذا ما زرت «ماريا» فما «سعدى» وما «ريّا» ؟
فتاة كقضيب البان يثنيها الصبا طيّا
تلوّى كالمواعيد أطالت عمرها ليّا
لها وجهٌ مسيحيٌ ترى المَيْتَ بها حيّا[2] !

* * *

وبالرغم من هذه المشابهة ما بين شعر ابن القيسراني وشعر النواسيّ، لا يملك الدارس لشعر ابن القيسراني وحياته معاً، إلا أن يحسّ أن الرجل كان في «ثغريّاته»، وشعره الوجداني اللاهي عموماً، يعبّر تعبيراً صادقاً عن ذاته، ويتجاوب مع نزعات أصيلة في نفسه، استجابة لميل قوي فيه إلى المرح واللهو، وهو ميل لم تستطع السنون أن تضعضعه وتخفف عن حدّته.

فلقد كان وهو على مشارف الخمسين من عمره، وله في دمشق أهل وولد، لا يكف عن ممارسة الصبوات في العراق، حين توجه إليه عام ٥٢٧ هـ. بل هو لم ير حرجاً في أن يقسم عواطفه بين الأهل في دمشق، والأحبّة الجدد في العراق :

أقمت بالأنبار ذا لوعة مقسومة بين حبيبين
أشتاق أهلي بدمشق وفي بغداد حظّ القلب والعين[3]

وإذا ما أخذنا قوله مأخذ الجدّ، فلا بدّ أن يكون قد قضى في العراق لبانات، وأقام فيه ارتباطات، كما يتضح من قوله خلال رحلة عودته من

١ – مخطوطة الديوان ص ٧٦ .
٢ – نفس المصدر ص ٦٦ .
٣ – نفس المصدر ص ٥٥ .

العراق إلى الشام وقد مرّ بواد يدعى وادي « أبلى » :

أقول لخيلي عند « أبلى » وماؤه يباري دموعي والرفاق تسير
تجاوزن عن ماء الغدير وشربه فبين جفوني للركاب غدير
ولما ثنى طرفي اشتياقي إليكم ولم يركم ، كاد الفؤاد يطير
وكيف برؤياكم وبيني وبينكم مهامه تثني الطرف وهو حسير
وأعجب ما ألقاه في الحب انني أسير وقلبي بالعراق أسير[1]

وفي هذه الرحلة ذاتها يتنازع قلبه الأهل في الشام والأحبّة في العراق ، فلا يرى حرجاً في أن يقول :

أحبّ الشآم وأهوى العراق فخلفي هوى وأمامي هوى
فيا معشر الناس أشكو الغرام إليكم فهل عندكم من دوا[2]؟!

ويقول :

يتيّمني بأرض الشام حب ويعطفني على بغداد حب
غرام طارف وهوى تليد لكل صبابة في القلب شعب
ولا وأبيك ما هوّمت إلاّ سرى لهما خيال لا يغب
فكل هوى يطالبني بقلب وهل لي غير هذا القلب قلب[3]؟

وحتى في الثانية والستين ، بقي ابن القيسراني من ذوي الصبوات الجامحة ، كما تدل على ذلك ثغرياته .

ومخطوطة ديوانه ، وكذلك المصادر التي احتوت على مختارات من شعره ، حافلة بمادة الغزل التي أفرد لها القصائد والمقطّعات .

---

١ – مخطوطة الديوان ص ٥٨ .
٢ – نفس المصدر ص ٥٦ .
٣ – نفس المصدر ص ٥٩ .

ولا يملك المتتبع لشعر ابن القيسراني الغزلي ، برغم ما فيه من لمسات تذكر بالسابقين ، إلا أن يلحظ فيه من الجمال والبراعة والطرافة والانسيابية والموسيقية ، ما يدل على مقدرة وأصالة ...

وتجربة ابن القيسراني في أنطاكية وأعمالها ، وإن حملت مشابه من جولات أبي نواس في ديارات النصارى ، ليست مُجرّد صورة منها . فها هنا شاعر « سائح » في أرض محتلّة ، يسكنها خليط من أجانب وافدين من أوروبا ، ونصارى محليين ، ولا تكوّن جزءاً من الدولة الإسلامية ، في حين أن أبا نواس ، كما سبق القول ، كان يمارس صبواته في أرض لا تخرج عن نطاق الدولة الإسلامية .

ولن يفوت من يقرأ شعر ابن القيسراني ، الجاد منه واللاهي على السواء ، أن يتبيّن ميل الشاعر الأصيل إلى اللهو ، من مجموعة من تشبيهاته واستعاراته التي تستمدّ من عالم الجنس . ولا يخفى ما لهذا الاتجاه في تصوّرات الرجل ، من دلالة على نفسيّته .

وفيما يلي بعض أمثلة توضح ذلك ؛

يقول عن مدينة الرها عندما فتحها نور الدين :

فصدّت صدود البكر عندافتضاضها وهيهات كان السيف حتما سناده[1]

ويقول في دمشق بعد أن أذعن حاكمها لنور الدين :

خلوب أكنّت من هواك محبة نمت فانتمت جهراً وسرّالهوى جهر
وهل هي إلا كالحصان تمنّعت دلالاً وإن عزّ الحيا وغلا المهر[2]

ويقول في معركة لنور الدين على العاصي :

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٩٧ .
٢ – المصدر نفسه ص ١٨٦ .

وعاصى على العاصي بارعن خاطب دم الافك حتّى انكح النصل خطبه[1]

ويقول في مكان آخر في نور الدين :

في كل يوم ينثني سيفه ببلدة بكر وأخرى عوان[2]

* * *

وفي « الثغريات » لمسات خاصة بها ، تتمثل في مجموعة الألفاظ والمصطلحات الإفرنجية والمسيحية ، الدالة على إلمام الشاعر بطرائق الحياة في مجتمع الغزاة ، وعلى تقبّل اللغة العربية لمفردات دخيلة عليها ، مثلما فعلت في كل المراحل التي مرّت بها . ولا بدّ أن هذه المفردات الدخيلة ، قد أصبحت في زمن الشاعر جزءاً من معجم المفردات العربية ، تستعمل في حياة المسلمين اليومية ، بل وفي اللغة الأدبية كذلك ، ومنها الشعر ، حتّى ولو لم يدخل المشتغلون بالمعاجم العربية في ذلك الزمن ، تلك المفردات في معاجمهم التي تركوها . وقد لا تكون مجموعة الألفاظ التي استعملها الشاعر دخيلة من حيث اشتقاقاتها والأصل العربي الذي انبثقت عنه ، ولكنها تبقى ، مع ذلك ذات أطياف وايحاءات مرتبطة ببيئة غير البيئة العربية الإسلامية ، ودالة على مجتمع له طقوسه وحياته الخاصة به .

ومن هذه الألفاظ التي وردت في « ثغريات » ابن القيسراني :

قدّيسة ، هيكل ، قونة ، ناقوس ، قسّ ، مَدْرَس ، بُرْنُس ، كنائس ، تماثيل ، مرجرجس ، دمية ، مذبح ، قربان ، شمّاس ، تثليث ، عيد الصليب[3] . وتمثل هذه المفردات قائمة بالألفاظ المرتبطة بحياة الصليبيين ، يمكن ضمّها إلى قائمة أخرى أقصر منها تحتوي ألفاظاً أجنبية ، مما ورد في

---

١ – الروضتين ص ١٨٨ .

٢ – المصدر نفسه ص ٥٠ .

٣ – انظر مخطوطة الديوان ص ٦٢، ٦٤، ٦٨، ٧٠، ٧٢، ٧٤ .

شعر ابن القيسراني في قصائده الجهادية : طوارق (صيغة جمع لنوع من أدوات القتال الصليبية) ، الابرنز « الأمير » ، القمص (لقب نبل يقابل Conte في الفرنسية)[1] .

* * *

وكما احتوى شعر ابن القيسراني في ثغرياته على ألفاظ دخيلة أو شبه دخيلة ، فقد احتوى كذلك على ألفاظ ترتبط بمصطلحات علوم العصر ، مما يجعل هذا الشعر بدوره حاملاً لمعالم من شخصية صاحبه الثقافية .

ولعلّ من المفيد ، أن نقف هنا وقفة قصيرة ، على قضية « تطعيم » الشعر العربي بألفاظ دخيلة أو ببعض مصطلحات العلوم . وأول ما ينبغي قوله هنا ، أن شيئاً من هذا وذاك ، قد عرفه الشعر العربي من قبل . فمنذ القرن الثاني الهجري ، عمد أبو نواس إلى أن يطعم شعره بكلمات فارسية وبعض مصطلحات أهل المنطق والكلام على سبيل التظرّف . وحين جاء أبو تمام ، ضمّن شعره كثيراً من المعاني الفلسفية والحكمية ، حتى أثار بذلك بعض النقاد عليه ، وعلى رأس هؤلاء ، أبو بشر الآمدي الذي كان يرى أن أهل العلم بالشعر يريدون أن يتوافر له « حسن التأتي ، وقرب المأخذ ، واختيار الكلام ووضع الألفاظ في مواضعها وان يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه ، المستعمل في مثله . وان تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه »[2] . وأما إذا كانت طريقة الشاعر غير هذه الطريقة ، « وكانت عبارته مقصّرة » عنها ، ولسانه غير مدرك لها ، حتى يعتمد دقيق المعاني من فلسفة يونان ، أو حكمة الهند ، أو أدب الفرس ، ويكون أكثر ما يورده منها بألفاظ متعسفة ونسج مضطرب ، وان اتفق في تضاعيف ذلك شيء من صحيح الوصف وسليم النظرة قلنا له : قد جئت بحكمة وفلسفة

---

١ – انظر كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٥٤، ١٥٥، ١٤٦، ١٧٦، ١٨٦، ١٨٧، ٥٠ .

٢ – كتاب « الموازنة » ، ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١ ج١ ص ٤٠٠ .

ومعان لطيفة حسنة ، فإن شئت دعوناك حكيماً ، أو سميناك فيلسوفاً ، ولكن لا نسمّيك شاعراً ، ولا ندعوك بليغاً ، لأن طريقتك ليست على طريقة العرب ، ولا على مذاهبهم ، فإن سميناك بذلك ، لم نلحقك بدرجة البلغاء ، ولا المحسنين الفصحاء »[1] .

وحين أسرف أبو الطيب المتنبي في القرن الرابع الهجري ، على نفسه في استعمال مصطلحات العلوم في شعره ، وجد كذلك من ينتقده . فهذا أبو منصور الثعالبي يعدّ من سيئات المتنبي وعيوبه :

« استعمال كلمات المتصوّفة المعقدة ، ومعانيهم المغلقة ، والخروج عن طريق الشعر إلى طريق الفلسفة »[2] .

وفي القرن الخامس الذي شهدت حياة ابن القيسراني الربع الأخير منه، يستبين الاتجاه القوي إلى استعمال مصطلحات العلوم في الشعر ، وادخال كلمات أجنبية فيه ، وذلك على الرغم من أن ناقداً من أشهر من ألّفوا في صناعة الشعر في القرن الخامس — ابن رشيق القيرواني — قد وقف موقف المعارضة من هذا التعالم . فها هو ذا يقول في « العمدة »: « وللشعر ألفاظ معروفة ، وأمثلة مألوفة ، لا ينبغي للشاعر أن يعدوها ولا أن يستعمل غيرها ، كما أن الكتّاب اصطلحوا على ألفاظ بأعيانها أسموها الكتابية ، لا يتجاوزونها إلى سواها ، إلا أن يريد شاعر أن يتظرّف باستعمال لفظ أعجمي ، فيستعمله في الندرة ، وعلى سبيل الخطرة ، كما فعل الأعشى قديماً ، وأبو نواس حديثاً ، فلا بأس بذلك . الفلسفة وجرّ الإخبار باب آخر غير الشعر ، فإن وقع فيه شيء منهما فبقدر ، ولا يجب أن يجعلا نصب العين ، فيكونا مُتّكأ واستراحة ، وإنما الشعر ما أطرب وهزّ النفوس وحرّك الطباع ، فهذا هو

---

١ — الموازنة ص ٤٠١ — ٤٠٢ .

٢ — يتيمة الدهر . القاهرة ط ٢، ١٩٥٦ ج٢ ص ١٨٧—١٨٨ .

باب الشعر الذي وضع له ، وبني عليه ، لا ما سواه »[1] . .

ويبدو أن اختلاف الناس في نظرتهم إلى الشعر ، ما بين كونه مادة امتاع أو مصدر إفادة ،يتجاوز زمان ابن القيسراني ومكانه ، إذ ثمة حديث عن شعر ممتع Dulce وشعر مفيد Utile يمتد إلى زمن الشاعر الروماني المشهور هوراس Horace [2] .

وقبل أن ننهي هذا الفصل ، ينبغي القول إن كل ما ذكر عن أثر المقاييس الأدبية السائدة في عصر ابن القيسراني على شعره الجهادي ، يستبين كذلك في « ثغرياته » . بل إن ما ارتبط من هذه المقاييس بالتركيز على البديع والصنعة اللفظية ، يبدو في « الثغريات » أوضح منه في « الجهاديات » ، وذلك لأن الزخرف اللفظي ، بما يشتمل عليه من تأنق وتجميل ، يناسب هذا النوع من الشعر الوجداني الذي تمثّله « الثغريات » أكثر مما يناسب شعراً يكون موضوعه الحرب والقتال والجهاد .. وايراد شواهد من « الثغريات » للتدليل على اكتظاظها بصنوف البديع ، يعدّ في هذه المرحلة نافلة من النوافل، بعد أن اورد من هذه الشواهد الشيء الكثير فيما مضى من صفحات البحث ...

---

١ – العمدة ط ١ القاهرة ١٩٣٤ ج١ ص ١٠٧ .

٢ – انظر في ذلك : Theory of literature P. 249

خاتمة

وبعد ، فهذا هو حديث أبي عبد الله ، محمد بن نصر بن صغير القيسراني ، ابن فلسطين الذي فتح عينيه على الحياة في عكا ، مدينة الساحل الفلسطيني الساحرة ، والذي انتقل به ذووه طفلاً إلى مدينة أخرى على ساحل فلسطين أصغر من مدينة المولد . ولكنّ اسمها (قيسارية) ارتبط باسمه كما لم ترتبط به أية مدينة أخرى حلّ بها . فهو « القيسراني » نسبة إليها ، قبل أن يكون العكاوي أو الدمشقي أو الحلبيّ،على الرغم من أنه ولد في عكّا وعاش معظم سنيّ حياته في دمشق ، واشتهر شعره وذاع في حلب .

ولقد قدّر لابن القيسراني أن يرتبط بأماكن وشخصيات اضطلعت بالدور الأكبر في مكافحة الغزو الصليبي لبلاد الشام ، فكان أن واكب مسيرة الكفاح بسبب من تأثره بالأحداث وولائه لأمته وعقيدته ، واخلاصه لأميره الذي رعاه .

وكأنما كان الشاعر الذي عاش في فترة تحدّ عنيف لكيان أمته الحضاريّ، يرى أن الالتزام بالقديم والاستقاء منه في شعره ، صورة من صور الصمود الحضاري أمام التحدي الأجنبي العارم ، وشكلاً من أشكال الحفاظ على

الشخصية العربية الإسلامية . ولذا ، فقد تغنّى بانتصارات قومه على الطريقة التي تغنى بها الاسلاف ، ولم تكن آثار الالتقاء الحضاري مع الغزاة لتعدو تأثرات سطحية ، لا تتعدّى القشر إلى اللباب ، فبقي الشاعر المسلم يرتدّ ببصره وعقله وقلبه إلى تراث أمته ، يتخذ منه المعين الذي يغترف منه . وحتى التجديد الذي حاوله في شعره ، لم يعْدُ في معظمه أن يكون شكلاً من أشكال التوليد من القديم الموروث ، بحيث تؤخذ أقوال السابقين لتصاغ صياغة جديدة ، أو لتطلى بطلاء براق زاهي اللون ، ولكنه يظل مجرّد طلاء ، لا يغيّر من حقيقة الجسم المطليّ شيئاً ..

وإذ نسمع في شعر ابن القيسراني الجهادي الهادر المقعقع صوت الإنسان المسلم يخوض مع غيره من أدباء العصر معركة أمته ، ويتخذ من الكلم المنظوم سلاحاً له ، فإننا نسمع في ثغرياته صوت ذاته ، الباحثة أبداً عن الجمال ، الساعية دوماً إلى المتعة . فنتعرّف من هذه النفثات الوجدانيّة على طبيعة الرجل ونزعاته الأصيلة .

ولئن عزّ على الناظر في شعر ابن القيسراني أن يجد فيه دائماً التعبير الأصيل المستقل ، فيما خلا خطرات من شعره الوجداني ، فإن ذلك لم يكن مما يزري بالشاعر في مفهوم أدباء عصره . ونحن لا نأخذ على الشاعر أنه سار في شعره على نهج عام مطروق ، فتلك سمة لم يكد شاعر من شعرائنا القدامى يبرأ منها ، حتى شعراء الجاهلية ، ولكننا نودّ لو لم يكن سيره على نهج نفر من الأقدمين سيراً واعياً مدركاً ، يتجاوز خصائصهم العامة ، إلى لمساتهم التفصيليّة .

ومع ذلك كله ، فلا بدّ أن نعترف للشاعر بثقافة شعرية ولغويّة واسعة ، وبتمكن من التركيب العربي الأصيل ، ساعدت عليه حصيلة واسعة في مفردات اللغة ، مما مكّنه أن يحيي في شعره التقليدي شعر الفحول ممن سبقوه ، في زمن وصل فيه التقليد الشعري درجة المسخ والتشويه .

وإذا كنا نحمد للبارودي ، بل ولشوقي من بعده ، أن شعرهما التقليدي كان إحياء لشعر الفحول من شعراء بني العباس خاصة ، وبعثاً للنظم الجزل القويّ الأسر ، بعد أن عانى الشعر العربي من التقليد الهزيل والضحالة حقباً طوالاً ، فلا أقلّ من أن نحمد لابن القيسراني فضل الاجادة في التقليد ، حتى ولو لم يحتو الكثير من شعره على جديد ...

ولله الفضل والحمد أولاً وآخرا .

محمود أحمد ابراهيم

عمان ، الجمعة في ١٥ رمضان المبارك ١٣٩٠

الموافق ١٣ تشرين الثاني ١٩٧٠

obeikandl.com

فهرست المراجع

أ ـ المخطوطات :

١ ـ ديوان محمد بن نصر بن صغير القيسراني مخطوطة رقم ١٤٨٤ أدب ، دار الكتب المصرية بالقاهرة .

٢ ـ ورقات تحتوي شيئاً من شعر ابن القيسراني في مخطوطة محفوظة في المتحف البريطاني بلندن تحت : British Museum or add. 9656

٣ ـ كتاب الانساب لعبد الكريم بن محمد السمعاني .
صورة عن مخطوط في المتحف البريطاني تحت رقم : add. 22, 355

ب ـ على الآلة الكاتبة :

٤ ـ رسالة ماجستير بعنوان : محمد بن نصر القيسراني : حياته وشعره ، قدّمها فاروق جرّار إلى الجامعة الاميركية ببيروت سنة ١٩٦١ .

ج ـ الكتب المطبوعة :

(باللغة العربية ، حسب حروف الهجاء ، بالنسبة إلى اسم المؤلف).

٥ ـ ابن خلكان : أحمد بن محمد بن ابراهيم ابن أبي بكر بن خلكان، قاضي القضاة ، شمس الدين ، أبو العباس البرمكي الاربليّ .
وفيات الأعيان ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .
ط القاهرة ١٩٤٨ . وطبعة : مطبوعات دار المأمون ، عيسى البابي الحلبي

القاهرة (كتب عليها : الطبعة الأخيرة وقد طبع الجزء الأول عام ١٩٣٦) .
٦ – ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحيّ بن العماد الحنبلي – شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، طبعة بيروت ، وكذلك طبعة مكتبة القدسي ، القاهرة ١٣٥٠ هـ .
٧ – أبو شامة : شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : النوريّة والصلاحية . ط القاهرة ١٩٥٦ .
٨ – ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير – البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٤٨ هـ .
٩ – ابن الأثير : عز الدين أبو الحسين عليّ ابن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير – كتاب الكامل في التاريخ . المطبعة الكبرى بمصر . سنة ١٢٩٠ هـ . وكذلك طبعة دار صادر ودار بيروت ، ١٩٦٦ م .
١٠ – ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية – ملوك الموصل في :
Recuil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux V.II,part II.
١١ – الأزدي : عليّ بن ظافر الأزدي – بدائع البدائه ، بهامش كتاب « شرح شواهد التلخيص »المسمّى معاهد التنصيص لعبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد العباسي . المطبعة البهيّة ، مصر ١٣١٦ هـ .
١٢ – ابن الأثير : ضياء الدين نصر الله بن الأثير – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر طبعة القاهرة ١٩٣٩ م ، وكذلك طبعة بولاق ١٢٨٢ هـ .
١٣ – ابن العديم : المولى الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن العديم – زبدة الحلب في تاريخ حلب . تحقيق الدكتور سامي الدهان ، دمشق ١٩٥١ م .
١٤ – ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم بن واصل – مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣ .
١٥ – أسامة بن منقذ : مؤيد الدولة أبو مظفّر أسامة بن مرشد الكناني الشيزري – كتاب الاعتبار ، حرّره فيليب حتى ، مطبعة جامعة برنستون ١٩٣٠ .
١٦ – أسامة بن منقذ : كتاب البديع ، بتحقيق الدكتور أحمد بدوي وابراهيم الأبياري وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ١٩٦١ .

١٧ – ابن جبير : أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي الشاطبي البلنسي . رحلة ابن جبير ، بيروت ١٩٥٩ .
١٨ – أبو تمام : حبيب بن أوس الطائي – ديوان أبي تمام ، شرح التبريزي . تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف ١٩٦٤ .
١٩ – ابن رشيق : أبو عليّ الحسن بن رشيق القيرواني – العمدة في محاسن الشعر وآدابه تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، طبعة القاهرة ١٩٣٤ .
٢٠ – الأهواني : الدكتور عبد العزيز الأهواني – ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر . ط القاهرة ١٩٦٢ .
٢١ – أبو داود : سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني : سنن أبي داود . ط القاهرة ١٩٥٢ م .
٢٢ – ابن ماجة : أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني : سنن ابن ماجه .
٢٣ – أحمد بن حنبل : مسند أحمد . طبع المكتب الاسلامي بيروت
٢٤ – ابن الخيّاط : أبو عبد الله أحمد بن محمد بن عليّ بن يحيى بن صدقة التغلبي المعروف بابن الخياط . ديوان ابن الخياط ، بتحقيق خليل مردم بك ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٨ .
٢٥ – ابن عساكر : عليّ بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن عساكر – تهذيب تاريخ ابن عساكر هذّبه ورتبه الشيخ عبد القادر بن بدران ، دمشق ١٣٣٠ هـ .
٢٦ – ابن سنان الخفاجي : سرّ الفصاحة طبعة الخانجي ١٩٣٢ .
٢٧ – ابن أبي الأصبع : زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر المصري – تحرير التحبير ، بتحقيق حفني شرف ، طبع المجلس الإسلامي الأعلى .
٢٨ – ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون – مقدمة ابن خلدون ، المطبعة البهية القاهرة .
٢٩ – الآمدي : أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي . الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ، تحقيق السيد أحمد صقر ، طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١ .
٣٠ – البخاري : أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي . صحيح البخاري .
٣١ – الباجوري : ابراهيم بن محمد الباجوري ، ط ٢ المكتبة الحديثة : حاشية الباجوري على ابن القاسم .

٣٢ ــ بدران : عبد القادر بدران ، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال بتحقيق زهير الشاويش ، طبع المكتب الاسلامي ١٣٨٢ هـ ــ دمشق .
٣٣ ــ الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن شدّاد : سنن الترمذي .
٣٤ ــ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . طبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة .
٣٥ ــ الثعالبي : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري . يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ط القاهرة ١٩٥٦ .
٣٦ ــ الجرجاني : القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ــ الوساطة بين المتنبي وخصومه طبعة صيدا ١٩١٣ وكذلك طبعة القاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، وعلي محمد البجاوي ، الطبعة الثالثة ، عيسى البابي الحلبي وشركاه .
٣٧ ــ الجرجاني : عبد القاهر الجرجاني ــ أسرار البلاغة ، مطبعة الترقي ، دمشق سنة ١٣٦٠هـ.
٣٨ ــ حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله كاتب چلبي ــ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، ط ١٩٤١ .
٣٩ ــ الدبيثي : الحافظ أبو عبد الله محمد بن سعيد بن محمد الدبيثي ــ المختصر إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله ... الدبيثي ، انتقاء محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي . بتحقيق الدكتور مصطفى جواد ، بغداد ١٩٥١ .
٤٠ ــ الذهبي : مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي . العبر في خبر من غبر ، طبعة الكويت ١٩٦١
٤١ ــ الزركلي : خير الدين الزركلي ــ كتاب الأعلام ، الطبعة الثانية .
٤٢ ــ الزبيري : أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري : كتاب نسب قريش . تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المعارف للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٥٣ .
٤٣ ــ سبط ابن الجوزي : يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله أبي المظفر شمس الدين ــ مرآة الزمان . طبعة حيدر آباد الهند ، الطبعة الأولى ١٩٥١ .
٤٤ ــ سلام : الدكتور محمد زغلول سلام : النقد العربي من القرن الخامس إلى العاشر الهجري . طبعة دار المعارف في القاهرة .
٤٥ ــ ابن طباطبا : أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم بن طباطبا ــ عيار الشعر ، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام ، القاهرة ١٩٥٦ .
٤٦ ــ العماد الأصفهاني : أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمد بن هبة الله الملقب عماد الدين الكاتب الأصفهاني . خريدة القصر

وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام . بتحقيق الدكتور شكري فيصل المطبعة الهاشمية ١٩٥٥ ــ ١٩٥٦ .

٤٧ ــ عاشور : الدكتور سعيد عاشور ــ الحركة الصليبية ، طبعة القاهرة ١٩٦٣ .

٤٨ ــ القرآن الكريم .

٤٩ ــ القلانسي : أبو يعلى حمزة ابن القلانسي ــ ذيل تاريخ دمشق . طبعة بيروت ١٩٠٨ مطبعة الآباء اليسوعيين .

٥٠ ــ القفطي : جمال الدين أبو الحسن عليّ ابن القاضي الأشرف ، يوسف القفطي . أخبار العلماء بأخبار الحكماء، عني بتصحيحه أمين الخانجي . طبع على نفقة عبد الرحمن بدران ١٣٢٦ هـ .

٥١ ــ كرد علي : محمد كرد علي . خطط الشام ، مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٩٢٦ .

٥٢ ــ المتنبي : أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي ــ ديوان المتنبي ، شرح اليازجي، طبعة دار صادر بيروت ١٩٦٤ .

٥٣ ــ النعيمي : عبد القادر بن محمد النعيمي ــ الدارس في تاريخ المدارس ، بتحقيق جعفر الحسني ، دمشق ١٩٤٨ .

٥٤ ــ ناصري : ناصري خسرو علوي ــ سفرنامة ، بالفارسيّة ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ، مطبوعات معهد اللغات الشرقية ، كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ، القاهرة ١٩٤٥ .

٥٥ ــ ياقوت : ياقوت الحموي ــ معجم الأدباء ، مطبوعات دار المأمون ، القاهرة .

٥٦ ــ ياقوت : ياقوت الحموي ــ معجم البلدان : طبعة القاهرة ١٩٠٦ ، وطبعة دار صادر ١٩٥٧ .

٥٧ ــ اليافعي : الشيخ الإمام أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان عفيف الدين اليافعي ــ مرآة الجنان ، وعبرة اليقظان . طبعة حيدر آباد ، الدكن ١٣٣٧ هـ .

باللغات الانجليزية

٥٧ – Carl Brockelmann :
History of the Islamic Peoples, London, 1952 .

٥٨ – Encyclopaedia Britannica, II th. edition.

٥٩ – H. A. R. Gidb :
The Damascus Chronicle of the Crusades, London, 1932 .

٦٠ – W. B. Stevenson :
The Crusades in the East, Cambridge, 1907 .

٦١ – René Wellek and A. Warren :
Theory of Literature, 4 th edition, London, 1955 .

obeikandl.com